أقاصيص

لكبار كتاب الإنجليز المعاصرين

أقاصيص لكبار كتاب الإنجليز المعاصرين.

ترجمة: إدوار رياض.

مراجعة: مُحَمَّد بدران.

الطبعة: ٢٠٢٣

العربية للاعلام والفنون والدراسات الانسانية والنشر

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر - الهرم – الجيزة - مصر

هاتف: ٣٥٨٦٧٥٧٦ ــ ٣٥٨٦٧٥٧٥

http://www.azhabooks.com

E-mail: info@azhabooks.com

بطاقة فهرسة أثناء النشر

ترجمة: إدوار رياض — مراجعة: مُحَمَّد بدران – أقاصيص لكبار كتاب الإنجليز المعاصرين.

– الجيزة — أزهى، ٢٠٢٢

١٣٧ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٩ — ١ — ٨٦٣٨٢ — ٩٧٧ – ٩٧٨

أ — العنوان رقم الإيداع: ٢٣٢٤٨ / ٢٠٢٢

أقاصيص

لكبار كتاب الإنـجليز المعاصرين

ترجمة

إدوار رياض

مراجعة

محمد بدران

دب الكولونيل بيتش

دافد جارنت

اعتاد أسباني في أيام طفولتي أن ينتقل في البلاد ومعه دبه الراقص، وكان يزورنا أحياناً. وقد منع مثل هؤلاء الناس ومثل هذه الدببة من إنجلترا من وقت بعيد طبقاً لقانون إنساني رأي رفقا بالحيوان أن يحرم عرض الدببة تحريماً تاماً، وأصيب أطفال الريف من جراء ذلك بخسارة عظيمة. ويقول الناس إن الدببة كثيراً ما كانت تعامل بقسوة، ولكني مع ذلك آسف لاختفائها، ولو أمكنني أن أعيدها لما ترددت في ذلك قط.

وكنت في الأيام السعيدة قبل اختراع السيارات أعيش مع أبي وأمي في كوخ منفرد، يطل على واد متسع، تحيط به من جميع الجوانب غابة كثيفة قضيت فيها أيام طفولتي أزحف بين النباتات الجافة كالثعبان، وأتصور أنني أحد الهنود الحمر من أتباع فينمور كوبر. وكان لابد لكل من يأتي إلى منزل، أن يتتبع آثار العربات في الأرض، وكنت أرقب الطرقات وفي شعري ريش طائر الدراج، وأتبين أي شخص غريب يتجه نحو منزلنا، وأحذر والدي منه.

ومازلت أذكر الإسباني الذي زارنا مرتين، وكنت في كل مرة أترقبه لأستطلع أمره من مخبأي. وحضر الرجل مخترقا أول الأمر الطريق الضيق

الشديد الانحدار المظلل بأشجار الصنوبر على سفح التل، وعلى كتفه عصاه، وفي يده سلسلة، وكان الدب يمشي من ورائه بغير انتظام، وهو أشبه بكلب كبير. وقد تركتهما يمران وراقبتهما في اتجاههما إلى الباب الكبير، وأتبعتهما وأنا خائف حتى وقفا عند بقعة مغطاة بالحشائش في طرف الحديقة بجوار اصطبل المهر؛ ثم أخذ الإسباني مزماراً صغيراً ونفخ فيه بقوة ليستدعي أهل المنزل، ولم يلبث أجتمع حوله ولدي ووالدتي ونيللى أو ترام الخادمة وبيرت تايدي الصبي البستاني. وزاد ذلك في اطمئنتني فأقترب منهما؛ وإني لأذكر الوجوه المشرقة المشتاقة، والصباح الصافي، والزائرين المثيرين للدهشة!

وكان الإسباني يضع على رأسه قبعة غريبة، يظهر أنها كانت مصنوعة من الكتان الأصفر الماحل اللون على إطار من الغاب، وكانت سترته مصنوعة من قماش متين ضارب إلى الصفرة ذات أزرار معدنية، وكان يلبس تحتها صديرية أو صديريتين، وكانت سراويله من القماش ذاته، ضيقة فيما بين الركبة والكاحل، وكانت في ملابسه بعض الألوان التي تلفت الأنظار، وربما كان ما حول رقبته منديلا أحمر. وكان الرجل نفسه أسمر البشرة قذراً، له عينان تتجلى فيهما الجرأة، لم حلق لحيته من بضعة أيام، بارز عظام الوجنتين. وكان الدب رملي اللون مختلطاً لونه هذا باللونين الأصفر والرمادي، ولو أنني لا أشك في أنه أحد الدببة الأوربية، وأنه دب أسباني أو باسكي النشأة من جبال البرانس. وكان حول رقبته طوق حديدى وسلسلة معدنية، ولكن فمه لم يكن فيه كمامة.

ولما التففنا حوله، نهض بروين على رجليه الخلفيتين، وأعطاه سيده

العصا، فلف حولها ذراعيه المكسوتين بالشعر، ثم أخذ الرجل يعزف بعض النغمات الموسيقة على قيثارته. ولما سمع الدب النغمات، أخذ يرفع أقدامه في حركات سمجة، ثم يدور حول البقعة التي تنمو عليها الحشائش، وكن سرعان ما انتهى الرقص ومشى الدب حولنا وقبعة سيده في فمه، ووجدت في نفسي من الشجاعة ما جعلني أسقط فيها الشلن الذي أخذته من والدي. وكان الإسباني يجهل اللغة الإنجليزية، وفشلت محاولات والدتي في أن تتحدث إليه بأي لغة أجنبية، ولكن هذه المحاولات أدت على الأقل إلى السماح لي بأن أربت على الدب الذي بدا هادئ الطباع بقدر ما يستطيع الدب أن يكون هادئاً وسط جماعة من الناس، لأن الدببة تحب الوحدة وتفضلها عن إعجاب الأولاد الصغار بها.

ولما أحضر الطعام والماء، وأكل الدب الخبز والتفاح، ولم يبق شيء يدعو إلى الانتظار، رفع الإسباني قبعته، وابتسم وانحنى محييا، وسار في طريقه إلى الغابة، وعصاه في يده، والدب من خلفه، فاقتفيت أثره مسافة قصيرة في الغابة. وقد سحرني الدب والرجل الشجاع الذي سار أمامه وعصاه على كتفه، لأن عقلي الساذج صور لي أنه لا يمكن أن يسافر أمير من الأمراء بحرس أجمل من هذا. ولذلك جعلت كلبي المسكين يتبعني في الأيام التالية لكلتا الزيارتين، وهو مربوط بسلسلة كالدب، وكان عليه أن يصبر علي وأنا أحاول تعليمه كيف يقف على رجليه الخلفيتين ويرقص. وما من شك في أن عملي هذا كان فيه قسوة.

هكذا كان شأن الرجل ودبه، ولم أعرف من حياتهما معا سوى القليل، وكل ما كنت أعرفه أنهما كانا يقيمان في منطقتنا، وأنهما كانا يقضيان معا

حياتهما في الخلاء في الغابة، وينتقلان منها في رحلات إلى جميع القرى المحيطة بها، ثم يعودان للاستراحة تحت شجرة من أشجار الزان والصنوبر. وإني لأتصورهما عائدين في المساء منهوكي القوى بعد جولة طويلة، جيب الرجل ممتلئ بالبنسات، والدب يذكر ابتهاج الأطفال وضوضاءهم، ثم يستقران مسرورين تحت شجرة ضخمة يحسان أنهما قد تخلصا من فضول الناس. فإذا غربت الشمس وتلألأت كواكب المساء في قبة السماء الزرقاء الشاحبة، أشعل الإسباني نيرانه الضئيلة، فترتفع بين يديه، ولا يلبث إناؤه القصديري أن يغلي، فيتناول الدب عشاءه وهو رغيف من الخبز الجاف وكمية من اللفت السويدي، ويشرب الماء، ثم ينام وأنفه بين مخلبيه، بينما يتناول الرجل طعامه البسيط المكون من قطعة من الخبز وبصلة نيئة، ثم يقطع قطعة من الخبز بسكينه الطويل، ويلقى بقطعة منها لوحشه ليتفكه بها. وتنبعث رائحة شديدة تحت الأشجار، رائحة الرجل والدب، ولا تلبث أن تمتزج رائحة التبغ الرديء بالروائح الأخرى بعد أن يملأ الرجل قصبته ويدخن، فتمتزج برائحة دخان الخشب والبصل النيء. بعد أن ينفد ما في القصبة من تبغ ينهض الرجل وينظر إلى الدب النائم، ويتأكد من أن السلسلة مثبتة في جذر شجرة زان كبيرة، ثم يعود ويلقي بنفسه بجانب النيران الضئيلة، ويضع سترة مزقة على أكتافه، وكيسين على قدميه، ثم يستغرق في النوم. وكان الرجل ودبه يتحركان قليلاً أثناء الليل من حين إلى حين، وذلك حينما تقلقهما الأحلام أو البراغيث.

ولا يمكن أن تكون هذه الصورة بعيدة عن الحقيقة، ولم يكن في وسع أن أقص عنهما قصة، لولا ما قصته علي (نيللي أوترام). وكانت نيللي فتاة جميلة

في السادسة عشرة من عمرها، ذات شعر أسود ينمو في حلقات، وعيون عسلية اللون وخدود حمراء، وكانت كغيرها من الفتيات القرويات تحب من تناجيه أسرارها، وكان لابد لها أن تثرثر أثناء عملها، وكثيراً ما كنت أتبعها من حجرة إلى حجرة وهي ترتب الفراش، أو أقف وأصغى إليها عند باب المطبخ وهي تقشر البطاطس وجاءت نيللي ذات ليلة وهي شديدة الانفعال، وكان سبب انفعالها أن الإسباني كما يظهر قد ترك الدب مربوطا بجوار عين ماء في الغابة ورحل إلى المدينة القريبة، وهناك قابل أسبانيا آخر، ثم ذهبا معا ليشربا في حانة عامة صغير. ولم يكن أحد قد سمع الرجل يتكلم أكثر من بضع كلمات بالإنجليزية الركيكة ولم يراه أحد ثملا، ولكنه في هذه المرة حلت عقدة لسانه، وأسر الأجنبيان في الحديث، وشربا كأساً بعد أخرى حتى كادت الخمر تلعب برأسيهما. وقبل أن ينتهي موعد إغلاق الحانة كانت أصواتهما قد ارتفعت شيئاً فشيئاً، وظنهما الناس يتشاجرا، ثم لم يلبث أن انتزع أحدهما سكيناً، وحاول كل منهما أن يغتال الآخر، ثم فرق الناس بينهما قبل أن يصاب أحدهما بأذى، وقبض عليهما رجال الشرطة، وساقوهما إلى المخفر. وتصادف أن انعقدت المحكمة في اليوم التالي، وكان يرأسها الكولونيل بيتش، وهو رجل ريفي متقدم في السن، طيب القلب، ولكنه بليد الفهم نوعا ما. ولما قدم الشرطي الأسبانيين إلى القضاء لم يشأ القاضي أن يسمع شيئاً عن الشروع في القتل، أو الإصابة مع الإصرار، وقال: «فلنحكم بالعدل، ولما كنا عاجزين عن أن نعرف أسرار القضية، فإن عليك أن تقتصر على اتهامهما بالسكر والخروج على النظام، وعلينا نحن أن نكتفي بسجنهما عشرة أيام».

وأوشك الأسباني أن يذكر أمر دبه، ولكنه امتنع بعد أن فكر في

الأمر، لأنه لم يكن يثق في أي إنسان آخر، ولأنه لم يستطع أن يفهم الناس ما يريد، وما من شك في أنه ظن أن الدب سيصبر على الجوع عشرة أيام، لأنه كان قد أعطاه طعاماً وافراً، ولأن الماء كان قريبا منه، هذا إلى أن الدببة تنام في الشتاء، ولا تتناول الطعام عدة شهور.

وعلى ذلك جلس الإسباني في السجن ممسكا رأسه بيديه، وفكر في دبه المقيد في الشجرة بالقرب من ينبوع الماء، مربوطا في سلسلته، مرهقا بطوقه الحديدي، متجولا في مكانه، ثم راقداً يأخذ الكرى بمعاقد أجفانه، ويزداد جوعا على جوعه. ثم فكر كيف يعوض على الدب في هذه المتاعب بأن يقدم له طعاماً شهياً بعد أن يغادر السجن.

وكان الكولونيل بيتش مغرماً بالصيد وباقتناء الطيور في أراضيه، فاستأجر معظم الأراضي الصالح لصيد حوله، حتى لا تهيم طيوره في الغابات المباحة للجمهور. وكان أحد حراسه شابا في العشرين من عمره، فلما سمع بعد أيام قليلة أن الإسباني قد زج في السجن وأن أحدا لم يسمع شيئاً عن دبه، خرج ليبحث عنه بنفسه؛ لأنه كثيراً ما شاهد الإسباني ودبه يتنقلان في الغابة. فذهب إلى عين الماء مباشرة، ووجد الدب، ثم ذهب إلى منزله وعاد ومعه أرنب ميت وخبز مقدد مما تأكله الكلاب، ووقف يلاحظ الدب أثناء مضغهما وبلعهما، ولا يدري ماذا يفعل بعدئذ. وظن أن الدب ربما يكون قد عاد إلى حالته الوحشية بسبب حاجته إلى الطعام فقال في نفسه: «سأبلغ رئيس الحرس ذلك، فنتفق على نقل الدب إلى المزرعة، حيث أسكن أنا، وسأطعمه حتى يخرج صاحبه من السجن». ولكن رئيس الحرس لم يوافق على أن يفك أغلال الدب، وأسرع ليخبر سيده الكولونيل

بهذا الكشف، ولعله قال له: «لقد وجدنا دبا متوحشا مربوطا في شجرة». وفي وسعنا أن نتصور انفعال الكولونيل ودهشته حين سمع ذلك النبأ. وسرعان ما ذهب إلى مكان الدب جماعة من الرجال وعلى رأسهم الكولونيل يحمل البندقية التي كان قد استعملها في الهند، ومعه كلب صيده المحبوب، يقفز حول رجليه. ولما وصلوا عين الماء نبح وزمجر الدب لأنه كان يكره الكلاب على الدوام، ويزعجه وقع أقدام الرجال.

وكان الكولونيل بيتش رجلاً ذا فراسةً، فنظر إلى الدب وسمع زمجرته، ورأى أنه وحش خطر، قد يدفعه الجوع لتحطيم سلسلته؛ هذا إلى أن الأطفال كثيراً ما يأتون للعب، وكثيراً ما تحضر النساء ليجمعن الحطب من الغابة، ففكر في الأخطار التي قد تحدث وهاله الأمر، ثم قال: «ليس هناك سوى طريق واحد نسلكه، فلا بد من أن نضربه بالرصاص».

ولكن الحارس تكلم وعرض أن يوكل إليه هو أمر العناية بالدب إذا سمح له بنقله إلى المزرعة؛ ولكن الكولونيل بيتش أجابه قائلاً: «هذا كرم منك يا جنسن، ولكن هناك أطفالاً حيث تقيم، ولا أستطيع أن أتركك تتحمل مثل هذه التبعة، فإن الدببة خائنة، وإذا فكت أغلالها...».

وبذلك قتل الدب بالرصاص، وأخذ يتقلب على الأرض. وطار ظرف رصاصة نحو أوراق الشحر الصفراء، وقفت الكلاب ترتعد من الخوف بعيدة عنه، والتف الرجال حوله وقلبوه ولمسوا فروته، وفكوا السلسلة منه وهم آسفون على ما فعلوه به، وكان أكثرهم أسفا الكولونيل بيتش، وكان مما قاله: «مسكين أيها الحيوان، ولكن الأفضل أن تقتل عن أن تعيش مع

هذا الخنزير اللعين الذي تركك لتهلك جوعا».

وعاد الكولونيل إلى منزله منفرداً يفكر فيما قاساه الحيوان من متاعب الإسباني القاسي، وكان سبب انفعاله أنه لم يقتل دباً من قبل. ثم أرسل في آخر النهار عربة لنقل الدب، وأرسل الجلد إلى لندن لصنع منه لباسا للعربة، وقد أخبرتني (نيللي أو ترام) بعد شهر من ذلك الوقت أن بنات بيتش كن يركبن العربة ويلتحقن بجلد الدب.

ولما خرج الإسباني من السجن وسمع بما حدث، غادر المكان من فوره، لأنه لم يرغب في أن يحاكم مرة ثانية على ترك الدب من غير رعاية. ولم يكن يشك في أن الكولونيل سيقسو وقتئذ عليه لأنه كان يحب العدالة، ولا يطيق القسوة على الحيوانات، ولذلك لم ينتظر الإسباني حتى يشاهد جلد دبه مفروشا في العربة، بعد أن خسر كل ما يملك. وكان لابد من أن يتغلب على كل العقبات حتى يعود إلى وطنه.

سرير عجيب رهيب

وليم ويلكي كلنز

بعد أن أتممت دراستي في الجامعة بقليل أقمت في باريس مع صديق إنجليزي، وكنا في ذلك الوقت شابين، وعشنا عيشة طائشة في تلك المدينة المبهجة؛ وفي ذات ليلة، بينما كنا نتسكع في المدينة عرض علي صديقي أن نذهب إلى محل (فراسكاتي) ولكن اقتراحه هذا لم يتفق مع مزاجي، فقد كنت أعرف فراسكاتي عن ظهر قلب كما يقول الفرنسيون، إذ سبق أن كسبت وخسرت في ذلك المكان كثيراً من القطع ذات الخمسة الفرنكات لمجرد الرغبة في اللهو، حتى لم يصبح في عملي هذا شيء من اللهو في هذه الدار «المحترمة» من دور المقامرة، ولذلك قلت لصديقي، بالله دعنا نذهب إلى أي سكان نشاهد فيه قليلاً المقامرة على حقيقتها وعجيجها وبؤسها، ولنبتعد عن فراسكاتي الأنيقة إلى مكان لا يتألمون فيه من وجود إنسان ذي سترة ممزقة أو من غير سترة على الإطلاق.

فقال صديقي: «حسناً، ولسنا بحاجة إلى أن نذهب بعيداً لنجد أولئك أصحاب الذين نريدهم، فها هو ذا أمامنا مكان يقول كل من يعرفه إن فيها من العجيج ما تحبه وترضاه، ولم تمض إلا دقيقة حتى وصلنا إلى الباب ودخلنا المنزل.

ولما صعدنا السلم، وتركنا قبعاتنا وعصينا عند البواب، سمح لنا بالدخول إلى غرفة المقامرة الرئيسية. ولم نجد كثيراً من الناس هناك مجتمعين، ولكن من رفعوا أنظارهم إلينا حين دخلنا كانوا كلهم على قلتهم أنماطا– ويحزنني أن أقول إنهم أنماط حقة– من طبقاتهم المختلفة. لقد حضرنا لمشاهدة جماعة من الأوباش، ولكنا شاهدنا من هم أسوأ من هؤلاء، ذلك أن في الأوباش جميعاً ناحية فكاهية قلت هذه أو كثرت.. أما هنا فلم نر إلا مأساة، مأساة عجيبة صامتة.

وكان السكون المخيم على الحجرة سكوناً رهيباً، وكان الشاب النحيف الجسم الشاحب اللون، الطويل الشعر، الذي يراقب بعينيه الغائرتين أوراق اللعب بشراسة وحدة، لا يتكلم أبداً، وكان اللاعب المنتفخ الوجه الذي تدل ملامحه على المرض لا يتحدث قط، وهو يسجل في صبر ومثابرة كم مرة كسب الأسود وكم مرة كسب الأحمر، وصمت الشيخ القذر المتجعد الوجه، ذو العينين كعيني الطيور الجارحة والمعطف المرقع الذي فقد آخر قطعة معه من النقود، وكان ينظر بيأس بعد أن عجز عن اللعب، فلم يتكلم أبداً. وحتى صوت الرقيب نفسه بدا كأنه قد اكتأب وغلظ إلى حد عجيب في جو الحجرة. لقد دخلت هذا المكان لأضحك، ولكن المنظر الذي رأيته كان يثير البكاء، وسرعان ما وجدت أن لابد لي من أن ألجأ إلى ما يثير مشاعري لأتخلص من هذه الكآبة التي أخذت في نفسي، ولكن كان من سوء حظي أنني سلكت أقرب سبيل لهذه الاستثارة، بأن ذهبت إلى المنضدة وبدأت ألعب، وكان من سوء حظي أكثر من هذا، كما يدل على ذلك عاقبة أمري، أنني كسبت، وكسبت مبالغ طائلة خارقة

للعادة، لا يصدقها العقل، وكسبت بسرعة جعلت اللاعبين المدمني اللعب على منضدة القمار يلتفون حولي وينظرون إلى أكوام النقود بعيون جشعة موسوسة، ويتهامسون قائلين إن اللاعب الإنجليزي سيكسب كل ما في صندوق اللعب. وكانت اللعبة، لعبة الأحمر والأسود، وقد لعبتها من قبل في مدينة في أوروبا من غير أن أعني بدراسة نظرية الحظوظ، أو أرغب في دراسة هذه النظرية التي هي بمثابة حجر الفلاسفة للاعبين، ولم أكن في وقت من الأوقات مقامر بالمعنى الدقيق لهذا اللفظ، ولم تستحوذ علي قط شهوة اللعب، بل كانت مقامؤتي تسلية في وقت الفراغ، ولم تدفعني إليها الحاجة لأني لم أعرف في يوم من الأيام كيف تكون الحاجة إلى المال، ولم أسرف في اللعب حتى أضيع أكثر ما يمكن إضاعته، ولم أكسب أكثر مما أستطيع أن أضعه في جيوبي وأنا هاديء غير مضطرب. وقصارى القول أنني كنت أذهب إلى مناضد الميسر كما أذهب إلى قاعات الرقص ومسارح التمثيل لأني أجد فيها تسلية، ولأنني لم أكن أعرف طريقة أقضي بها أوقات فراغي أفضل من هذه الطريقة. أما في هذه المرة فقد كان الأمر مختلفاً كل الاختلاف، إذ شعرت لأول مرة في حياتي بحقيقة شهوة اللعب، فقد ارتبكت لنجاحي في مبدأ الأمر، ثم أسكرني النجاح بكل ما يتضمنه لفظ السكر من معان. وقد يبدو ما سأقوله بعيداً عن العقل، ولكنه مع ذلك هو الحق الذي لا ريب فيه. ذلك أني لم أخسر إلا حين حاولت تقدير احتمالات الكسب والخسارة، ولعبت حسب تقدير سابق. وكنت إذا تركت كل شيء للحظ، وراهنت دون اهتمام أو تقدير، ضمنت لنفسي الكسب وكسبت رغم ما كان مقرراً من أن كفة الصندوق هي الراجحة.

وجازف بعض الحاضرين في أول الأمر بأموالهم في الرهان على أوراقي، وأمنوا من الخسارة، ولكني بادرت إلى زيادة قيمة الرهان زيادة لم يجرؤوا معها على المخاطرة بمالهم، وامتنعوا عن اللعب سوى واحد منهم، وأخذوا ينظرون إلي وأنا ألعب، وأنفاسهم محتبسة في صدورهم.

وزدت مبالغ الرهان المرة بعد المرة وظللت مع ذلك أربح، وارتفعت حمى اللعب في الحجرة إلى أقصى حد، ولم يقطع الصمت الذي كان يسودها سوى عبارات التعجب والسباب التي كانوا ينطقون بها بمختلف اللغات وبأصوات شديدة متذمرة كمن جرف الذهب إلى الجانب الذي أجلس عنده من المائدة، بل إن الرقيب نفسه، وهو الرجل البليد الطبع، وقد ألقى بمجرفه على الأرض لشدة ما دهش من نجاحي. ولم يحتفظ بهدوئه من الحاضرين سوى رجل واحد، وكان هذا صديقي، فاقترب مني، وهمس بالإنجليزية في أذني، راجيا أن أغادر المكان، وأن أقنع بما ربحته. وجدير بي أن أذكر إنصافا له أنه أعاد تحذيره ورجاءه عدة مرار، ثم تركني وشأني وغادر المكان بعد أن رفضت نصيحته، إذ أصبحت في واقع الأمر مقامرا ثملاً بالمقامرة حتى تعذر عليه أن يخاطبني مرة ثانية في تلك الليلة.

ولم يكد الرجل يغادر المكان حتى سمعت صوتاً أجش من خلفي يناديني: «أتسمح لي يا سيدي العزيز أن أعيد إليك جنيهين فرنسيين سقطا منك؟! إن سيدي لذو حظ عظيم وأقسم لك– وأنا جندي قديم– أنني لم أشاهد في أثناء تجارتي الطويلة في اللعب حظاً مثل حظك! لم أشاهد مثله أبداً! استمر يا سيدي وأفلس الصندوق.»

ثم التفت خلفي، فشاهدت رجلاً طويل القامة انحنى ويبتسم لي بأدب جم.

ولو أنني كنت محتفاً بحواسي وقتئذ لظننته جندياً قديماً من طراز يدعو إلى الريبة في أمره، فقد كانت له عينان محمرتان تتقلبان، وشارب أشعث، وأنف مصاب بكسر، وصوت تنم نبراته على أنه من أسوأ من سكن الثكنات، وكانت لديه يدان لم أر أقذر منهما في حياتي. على أن هذه العيوب الشخصية الصغيرة لن تبعث في نفسي الاشمئزاز منه، فقد كنت في انفعالي الجنوني وظفري واستهتاري مستعدا لأن أكون صديقاً لأي شخص يشجعني على المقامرة. وقبلت لفافة التبغ التي قدمها لي الجندي القديم، وربت على ظهره وأقسمت أنه أشرف إنسان في العالم، وأعظم من بقي على قيد الحياة من الجيش العظيم، وصاح صديقي العسكري وهو يرقص من فرط الإنفعال: "استمر، استمر، واكسب، خذ جميع نقود الصندوق يا صديقي الشهم، خذ جميع نقود الصندوق."

وواصلت المقامرة فعلا...

ولم تمض ربع ساعة حتى صاح الرقيب قائلاً: «أيها السادة سنتوقف الليلة». وتراكمت كل الأوراق المالية والذهب تحت يدي وكان كل مال الصندوق يوشك أن ينصب في جيوبي، وحينذاك صاح الجندي القديم: «أربط النقود في منديلك يا سيدي الجليل! أربطها كما أعتدنا أن نربط طعامنا القليل في الجيش العظيم، فإن أرباحك أثقل من أن تحتملها أي جيوب صنعت حتى الآن، أجمعها كلها أوراقاً مالية وغيرها! ألا ما أعم هذا الحظ! قف! إن هناك جنيهاً فرنسياً آخر على الأرض! نعم هل وجدتك

أخيراً؟ والآن أستأذن سيادتك في أن أربطها بعقدين مزدوجتين لتكون في أمان. تحسسها! تحسسها يا سيدي، إنها ثروة عظيمة، إنها صلبة ومستديرة كطلقة المدفع، آه لو أنهم أطلقوا علينا مثل هذه القنابل في أوسترلتز! لو أنهم كانت لهم مثلها! والآن أنا وجندي قديم من جنود الجيش الفرنسي، ماذا بقي علي أن أعمله؟ إنني أسأل ماذا؟ لم يبق علي إلا أن أرجو صديقي المحترم أن يشرب زجاجة من الشمبانيا معي، أن يشرب معي نخب آلهة الحظ في كؤوس يعلوها الحبب قبل أن نفترق!».

«ما أعظمك أيها الزميل، هاتوا الشمبانيا بالتأكيد، حيوا الجندي القديم».

«لله درك أيها الإنجليزي الظريف الذي تجري في عروقه دماء فرنسا المرحة الطروب».

«آه إن الزجاجة فارغة، لا بأس بهذا، فليحيا النبيذ الجيد، أنا الجندي القديم أطلب زجاجة أخرى».

«– لا أيها الصديق الطيب– أبداً أيها الجندي القديم، كانت الزجاجة السابقة زجاجتك، وهذه زجاجتي، ها هي ذي! أشرب نخب الجيش الفرنسي! نابليون العظيم! الجماعة الحاضرة، نخب الرقيب، الرقيب الشريف! نخب زوج الرقيب وابنته إن كان له زوجة وإنه نخب كل من في العالم!».

ولم تكد تفرغ زجاحة الشمبانيا الثانية حتى شعرت كأنني كنت أشرب سائلاً من نار، ولاح لي أن مخي يلتهب، ولم يكن للإسراف في الخمر مثل

هذا الأثر السيء فيَّ من قبل، فهل كان هذا من فعل هذا المنبه في جهازي وأنا في حالة انفعال شديد؟ أو هل كانت معدتي مضطربة اضطراباً شديداً؟ أو هل كانت الشمبانيا ذات قوة خارق للعادة؟

وصحت في حالة من حالات الجنون: «أيها الجندي الفرنسي القديم! إنني أحترق! فما حالك أنت؟ لقد اشتعلت في النار، هل تسمح يا بطل أوسترلتز، فلنشرب زجاجة ثالثة من الشمبانيا لنطفيء هذه النيران الملتهبة؟»

وهز الجندي القديم رأسه، وقلب عينيه حتى خيل إليّ أنهما ستسقطان من وجهه، ووضع إصبعه القذرة بجانب أنفه المكسور، وصاح بصوت رزين «القهوة». وأسرع من فوره إلى حجرة في داخل الدار.

ولاح إن الكلمة التي نطق بها الزميل العجيب كان لها أثر سحري في باقي الحاضرين، فنهضوا جميعاً مرة واحدة للانصراف، ولعلهم كانوا يتوقعون أن يستفيدوا من سكري، فلما وجدوا أن صديقي الجديد لطيبة قلبه قد صمم على منعي أن أفقد وعيي من الشرب ضاع كل أمل لهم في الاستفادة من أرباحي؛ ومهما يكن الدفع لهم، فقد ذهبوا كلهم مرة واحدة. ولما عاد الجندي القديم وجلس أمامي إلى جانب المائدة، لم يكن أحد في الحجرة غيرنا، فأمكنني أن أشاهد الرقيب فيما يشبه الممر المتصل بالحجرة يتناول عشاءه، وكان الصمت يخيّم على المكان أكثر من أي وقت مضى.

وطرأ تغير مفاجيء على الجندي القديم أيضاً، فقد أصبح منظره وقورا

رزينا، ولم يكن حديثه منمقا بالتشائم، ولم يكن يؤكده مرة أخرى بالإشارات أو يبعث فيه الحياة بالصراخ.

وقال بلهجة الثقة التي لا يُعرف كنهها "استمع إليَّ أيها السيد العزيز، استمع إلى نصيحة جندي قديم، لقد ذهبت إلى سيدة المنزل (وهي سيدة جميلة ذات مهارة عجيبة في الطهي!) لأؤكد لها ضرورة عمل مقدار من القهوة الجيدة القوية، ولابد أن تشرب هذه القهوة لتتخلص من نشوتك الشديدة قبل أن تفكر في الذهاب إلى منزلك. لابد لك من ذلك أيها الصديق الطيب، فإذا شئت أن تأخذ كل هذا المال إلى منزلك الليلة، فإن من أقدس الواجبات عليك أن تكون متمالكاً لحواسك، فقد عرف كثيرون من الحاضرين الليلة أنك ربحت مبالغ طائلة. وهم من غير شك أناس طيبون جداً موثوق هم، ولكنهم مع ذلك آدميون يا سيدي العزيز لهم عيوبهم كغيرهم من الناس، فهل أنا في حاجة لأن أقول أكثر من ذلك؟! إنك تفهم غرضي، وهذا ما يجب أن تفعله، أرسل في طلب سيارة تدخل فيها، ومر السائق أن يذهب بك إلى منزلك مخترقاً الشوارع الرئيسية الحسنة الضوء. أفعل ذلك، حتى تكون أنت ونقودك في أمان، أفعل هذا وستشكر غدا للجندي القديم ما أسداه إليك من النصيحة الخالصة".

وما كاد الجندي المحنك ينتهي من ملاحظاته التي قالها بلهجة حزينة حتى جاءت القهوة مصبوبة في فنجانين، وناولني صديقي اليقظ أحدهما بإيماءة، وكنت أشعر بعطش شديد فشربتها أجمعها، وشعرت عقب ذلك مباشرة بنوبة دوار، وبأنني ثمل أكثر من أي وقت مضى، وأخذت الحجرة تدور بي دوراناً شديداً، وخيل إليّ أن الجندي القديم يرتفع وينخفض أمامي،

فكان أشبه بمحرك القاطرة البخارية، وكاد يذوب سمع من الطنين الرهيب، الذي كان يدوي في أذني، وغمرني شعور من الإضطراب الشديد والعجز والبلاهة، فنهضت من مقعدي وأنا ممسك بالمنضدة لأحتفظ بتوازني، وتمتمت بضع كلمات أردت أن أفصح بها عما أشعر به من ضعف لا أعرف معه كيف أستطيع العودة إلى منزلي.

فأجابني الجندي القديم، وقد خيلّ إليّ وهو يتحدث أن صوته نفسه يصعد ثم ينزل: «صديقي العزيز، إن من الجنون أن تعود إلى منزلك وأنت على هذه الحال، ولو عدت لفقدت نقودك ما في ذلك شك، فقد تسرق وتغتال بكل سهولة، وقد اعتزمت أن أنام هنا. فنم أنت هنا أيضاً، فإن عندهم سريراً ملائماً في هذا المنزل، ولك تتخلص من نتائج الخمر بالنوم، ثم تعود إلى منزلك غدا آمناً على أرباحك، ستعود غداً في وضح النهار».

ولم يكن في عقلي وقتئذ سوى فكرتين. إحداهما أنني يجب عليّ ألا أترك منديلي المملوء بالنقود يفلت من يدي، والأخرى أن لابد لي من أن أرقد في مكان ما على الفور وأنام نوما مريحا، ولذلك وافقت على الاقتراح الخاص بالسرير. وأمسكت بذراع الجندي القديم الذي مدّه لي وأنا أحمل نقودي بيدي الخالية يتقدمنا الرقيب. فمررنا بأحد الممرات، ثم صعدنا عددا من الدرج، وسرنا حتى وصلنا حجرة النوم التي خصصت لي، وصافحني الجندي المحنك بحرارة واقترح أن نفطر معا، ثم غادرني لأقضي الليل، ومن ورائه الرقيب. وأسرعت إلى المغسل وشربت بعض الماء الذي كان في الإبريق، وصببت ما تبقى منه في الحوض، وغمرت وجهي فيه، ثم جلست على كرسي، وحاولت أن أستعيد هدوئي. ولم ألبث أن شعرت أنني

أحسن حالا من ذي قبل، إذ أحسست في رئتي بأثر التغير من جو قاعة المقامرة الفاسد إلى الهواء المنعش في الحجرة التي كنت أشغلها الآن. وكان لهذا التغير أثره في عيني بعد أن انتقلت من أضواء الغاز المتوهجة في البهو إلى نور شمعة واحدة ضئيل هاديء في حجرة النوم. وقد ساعد هذا إلى حد عجب ما للماء البارد من أثر في إعادة النشاط، فغادرني الدوار، وبدأت أشعر بعض الشيء بأني مخلوق عاقل مرة أخرى. وكان أول ما فكرت فيه هو خطر النوم طول الليل في بيت للمقامرة، ثم إن الخاطر الثاني هو ما يعترضني من مخاطر أشد من هذا إذا حاولت الخروج بعد إغلاق المنزل، والعودة إلى منزلي منفرداً بالليل مخترقاً شوارع باريس ومعي مبلغ عظيم من النقود. ولقد سبق لي أن نمت في أماكن أسوأ من هذا المكان في رحلاتي، ولذلك اعتزمت أن أقفل الباب، وأحكم وضع المزلاج، وأضع بعض الحواجز خلف الباب، وأستسلم للأقدار حتى يصبح الصباح. وبهذا اتخذت كل الاحتياطات ضد أي تعرض لي، فنظرت تحت السرير وفي الصوان، واقتنعت بأنني أتخذت كل احتياط ملائم نزعت ملابسي الخارجية ووضعت الضوء الضئيل على المدفأة بين كومة من رماد الخشب، وذهبت إلى السرير، ووضعت المنديل المملوء بالنقود تحت الوسادة. غير أنني لم ألبث أن شعرت بأنني لا أستطيع النوم، بل عجزت أيضاً عن أن أغمض عني، فقد ظللت مستيقظاً وتملكتني حمى شديدة، وارتجف كل عصب في جسمي، وبدا لي أن كل حاسة من حواسي قد أصبحت مرهفة إرهافاً خارقاً للعادة، فضربت الفراش بقدمي وتقلبت على جنبيَّ، وجربت كل وضع من الأوضاع، والتجأت إلى أركان الفراش الباردة مرة بعد المرة،

ولكن كل ذلك كله عبثاً. ومددت ذراعي فوق الغطاء تارة، ثم دفعتها تحته مرة أخرى، ودفعت رجلي إلى أسفل الفراش مرة، ثم ثنيتهما بالقرب من ذقني بقدر ما أستطيع، ثم هززت الوسادة المتلبدة وقلبتها على الجانب البارد، ثم سويتها ورقدت في هدوء على ظهري، ثم ثنيتها ثنيتين بقوة عنيفة، ثم وضعتها على طرفها، ودفعتها إلى السرير. وحاولت أن أجلس، ولكن مجهوداتي كانت كلها عديمة الجدوى، وأخذت أئن غيظا، وأيقنت أني سأقضي الليل مستيقظا.

وماذا عساي أن أفعل؟ لم يكن معي كتاب أقرأ فيه، ومع ذلك فقد أحسست بأنني لم أهتد إلى شيء أعمله أحول به مجرى أفكاري، فلابد أن أصير إلى حالة أتخيل معها مل أنواع المتاعب، فأعذل بمخاوف الأخطار الممكنة والمستحيلة. وقصارى القول أني سأقضي الليلة أقاسي ما يمكن تصوره من أنواع الخاوف العصبية.

فنهضت تكئا على ساعدي وأجلت بصري في الحجرة التي كان ينفد إليها ضوء القمر الجميل من خلال النافذة لأرى هل بها صور أو أدوات للزينة أستطيع تميزها، وبينما كانت عيناي تنتقلان من جدار إلى آخر، تذكرت كتاب ميستر الممتع (رحلة غرفتي) فاعتزمت أن أقلد السمؤل الفرنسي وأجد ما أشغل نفسي وما ألهو به لأزيل ما شعرت به من ملل بسبب أرقي، فأخذت أحصي كل ما أراه من أنواع الأثاث، وأتتبع كل ما يرتبط بها من أشياء أخرى كثيرة يستطيع أن يستعيدها عقلي، حتى الكرسي والمنضدة وحوض الغسيل.

ووجدت في حالتي العصبية المضطربة في تلك اللحظة من الأسهل عليّ أن أحصي ما أشاهده بدلاً من أن أفكر فيما يرتبط به، ولذلك قطعت كل أمل في السير على منهج (دي ميستر) الخيالي، بل قطعت في واقع الأمر كل أمل في التفكير بالمرة، واكتفيت بالنظر إلى قطع الأثاث المختلفة في الحجرة.

فكان هناك أولا السرير الذي كنت راقداً عليه؛ ومن العجيب أنه كان سريراً إنجليزياً ذا أربعة أعمدة مغطى أعلاه كالعادة بالقماش المطرز المنقوش، والستائر غير الصحية تذكرت أني رفعتها عن الأعمدة بطريقة آلية من غير أن أمعن النظر في السرير في أول دخولي في الحجرة، ثم كان هناك المغسل الذي يعلوه الرخام، والذي لا تزال تتساقط منه ببطء وببطء متزايد على أرض الحجرة المصنوعة من الآجر قطرات المياه التي سكبتها حين أردت أن أفرغها منه على عجل؛ وكان هناك مقعدان صغيران مانت سترتي وصديريتي وملابسي ملقاة عليهما، ومعهما مقعد ملقى عليه قميصي ورباط رقبتي. وكان هناك أوان ذو أدراج، خلع منه مقبضان من مقابضه النحاسية، ومحبرة من الصيني رخيصة مكسورة موضوعة بقصد الزينة فوقه، ثم منضدة للتزين محلاة بمرآة صغيرة، ووسادة كبيرة للدبابيس، ثم النافذة وكانت نافذة كبيرة بشكل غير مألوف، ثم صورة قديمة قاتمة شاهدتها على نور الشمعة الضئيل وكانت صورة شخص في قبعة أسبانية مرتفعة، في أعلاها ريشات، وهي صورة أفاق وبش أسود اللون منحوس الطالع يظل عينيه بيده وينظر بانتباه إلى أعلى، وربما كان يتطلع إلى المشنقة المرتفعة التي كان يراد شنقه عليها. ومهما يكن من أمره، فقد كان يبدو أنه جدير بهذه الخاتمة.

وقد أغرتني هذه الصورة على أن أنظر إلى أعلي أنا أيضاً، إلى أعلى السرير، وكان قاتما مظلماً لا يثير الاهتمام، ثم أعدت النظر إلى الصورة، وأحصيت عدد الريش الذي كان في قبعة الرجل، وبدت واضحة بارزة، فكانت ثلاثا بيضاء وأثنتين خضراوين. ثم نظرت إلى أعلى قبعته فرأيتها مخروطية الشكل، ولم أدر ماذا كان يتطلع إليه، فلم يكن ينظر إلى الجوم، فإن مثل هذا الوبش لم يكن منجماً ولا فلكيا، فلابد أنه كان ينظر إلى المشنقة التي كان سيشنق عليها لساعته، وهل كان الجلاد معتزماً أن يأخد قبعته المخروطية وماا فيها من حزمة الريش؟ وأخذت أحصيه مرة أخرى، فكان ثلاث ريشات بيضاء وريشتين خضراوين.

وبينا كنت أقلب هذا العمل العقلي على وجوهه المختلفة، أخذت أفكاري تتشتت شيئاً فشيئاً. وذكرني ضوء القمر الساطع في الحجرة بإحدى الليالي المقمرة في إنجلترا، وهي ليل أعقبت نزهة خلوية في واد من وديان ويلز، وعادت إلى ذاكرتي كل حوادث تلك الليلة المقمرة حين كنت عائداً في عربة إلى داري وسط مناظر جميلة خلاّبة زادها جمالاً مشهد القمر، عادت كل هذه إلى ذاكرتي بالرغم من أنني لم أكن قد فكرت في تلك النزهة من سنوات، وبالرغم من أنني لو حاولت أن أذكرها لما أمكنني أن أذكر إلا قليلاً من تفاصيل المنظر الذي انقضى عليه وقت طويل، أو أن أذكر شيئاً منه على الإطلاق. وهأنذا في منزل غريب مريب أشد الريبة، وفي موقف مزعزع بل خطر، يبدو فيه أن محاولة استعادة الذاكرة كاد أن يكون مستحيلاً. ومع ذلك تذكرت رغم إرادتي أماكن وأشخاصاً وأحاديث ومواقف دقيقة مختلفة الأنواع، كنت أظن أنني نسيتها أبد الدهر، ولم يكن

في مقدروي أن أتذكرها إذا رغبت في ذلك، حتى ولو كانت الظروف ملائمة إلى أبعد حدود الملاءمة، وأي أمر ترتبت عليه في لحظة كل هذه النتائج العجيبة المعقدة الغامض؟ لا شيء أكثر من ضوء القمر الذي تسرب من نافذة حجرة نومي.

وكنت لا أزال أفكر في تلك النزهة الخلوية، وفي ابتهاجنا ونحن سائرون في العربة، وفي السيدة التي قد تنشد بعض الأشعار متأثرة بضوء القمر؛ وامتلأت نفسي بهذه المناظر والمسرات الماضية، ثم انقطع فجأة الخيط الذي كان يربطني بذكرياتي، وعاد اهتمامي في الحال إلى الأشياء التي أمامي، وبدت لي أكثر وضوحاً من قبل، ووجدت نفسي لغير سبب معروف أنظر باهتمام إلى الصورة مرة ثانية. وما الذي كنت أنظر إليه؟

رحماك اللهم! لقد جذب الرجل قبعته على جبهته! لا! بل إن القبعة نفسها قد ذهبت! فأين ذهبت قمتها المخروطية، وأين الريش، الثلاث الريشات البيضاء والاثنتان الخضراوان؟ إنها لم تكن هناك! وأي شيء قاتم هناك مكان القبعة والريشات فأخفي جبهته وعينيه ويده التي تحجب الضوء عن عينيه؟

وهل كان السرير يتحرك؟ وانقلبت على ظهري ونظرت إلى أعلى، فهل كنت مجنوناً؟ أو ثملاً؟ أو حالماً؟ أو مصاباً بدوار مرة ثانية؟ أو أن أعلى السرير كان يتحرك حقيقة إلى أسفل وينخفض ببطء وانتظام وسكون ورهبة إلى أسفل بكل طوله وعرضه على جسمي مباشرة وأنا راقد تحته؟

لقد خيل لي أن الدم قد وقف عن الجريان في جسمي، وسرت في

برودة مميتة شلت أعضائي عن الحركة، حينما أدرت رأسي على الوسادة واعتزمت أن أستيقن من أن أعلى السرير يتحرك حقيقة؛ وذلك بأن ثبت عيني على الرجل الذي في الصورة.

وكانت النظرة الثانية في هذا الاتجاه كافية، فقد أصبحت أطراف الستارة القصيرة السوداء التي كانت فوقي على ارتفاع بوصة واحدة من وسطه، وداومت النظر وأنا أكاد أعجز عن التنفس، ورأيت المصوَّر وحافة الإطار في أسفله يختفيان شيئاً فشيئاً وعلى مهل حين تدلت الستارة أمام الصورة.

إن الجبن أبعد الأشياء عن طباعي. وكثيراً ما تعرضت لخطر الموت ولم أفقد رباطة جأش لحظة. ولكني لما اعتقدت أن أعلى السرير يتحرك حقيقة، وأنه يطبق عليّ باستمرار شيئاً فشيئاً، أقشعر بدني، وشعرت بعجزي، واستولى علي الهلع تحت آلة الاغتيال المخيفة التي تقترب مني شيئاً فشيئاً لتخنقني حيث أرقد.

ونظرت إلى أعلى وأنا عاجز عن الحركة والكلام، والتنفس وكانت الشمعة قد نفدت وانطفأت؛ ولكن ضوء القمر كان لا يزال ساطعا ينير الحجرة، وأخذ أعلى السرير يهبط شيئاً فشيئاً لا يتوقف ولا يسمع له صوت، ومع ذلك فقد خيل إليّ أن رائحة الغبار العالق بالستارة تسربت إلى خياشيمي.

وفي تلك اللحظة الحاسة استيقظت في غريزة حفظ الحياة ففزعت وذهب عني شللي، ولم يكن لديّ من الوقت إلا ما يكفي لأن أتزحزح على

جنبي عن السرير. وحين سقطت على الأرض مست كتفي حافته القاتلة.

ونهضت في الحال على ركبتي من غير أن أضيع وقتا في التنفس وذلك لأشاهد حافة السرير، ووقفت جامداً كالمسحور، ولو أن سمعت وقع أقدام خلفي في تلك اللحظة لما استطعت أن ألتفت إلى الوراء، ولو أن وسيلة للهرب، قد هيئت لي بمعجزة سماوية لما أمكنني أن أتحرك لأستفيد منها، فقد كانت كل حياتي في تلك اللحظة مركزة في عيني.

وهبط عليّ السرير بأكمله بما فيه الستارة القصيرة المحيطة به وظل يهبط ويهبط حتى لم يعد في مقدوري أن أحشر إصبعي بين أعلى السرير وبين السرير نفسه، وتحسست الجوانب، فأكتشفت أن ما خيّل إليّ أنه السطح العلوي الخفيف لسرير ذي أربعة أعمدة، لم يكن في الواقع إلا حشية عريضة سميكة تخفي حافتها الستارة القصيرة. ونظرت إلى أعلى فوجدت الأعمدة الأربعة ترتفع بشكل رهيب. وكان في وسط أعلى السرير لولب خشبي ضخم يلوح أنه هو الذي يحركه إلى أسفل من ثقب في السقف، كما تحرك المكابس إلى أسفل على الأشياء التي يراد ضغطها، وكان الجهاز المخيف يتحرك من غير أن يصدر منه أقل صوت، ولم يكن له وهو يهبط أقل ضرير، ولم يسمع من الحجرة العليا أقل همس. وفي وسط هذا السكون المخيف المميت شاهدت أمامي في القرن التاسع عشر وفي عاصمة فرنسا المتمدنة آلة للاغتيال السري خنقا خليق بها أن توجد في أسوأ عهود محكمة التفتيش الأسبانية. ومع ذلك فإني وأنا أنظر إليها كنت عاجزاً عن الحركة لا أكاد أقوى على التنفس.ولكني بدأت أستعيد قوة التفكير، ولم تمض إلا لحظة حتى كشفت عن المؤامرة الرهيبة التي دبرت لاغتيالي.

فقد وضع دواء مخدر في فنجان القهوة، وكان مخدراً قوياً، وقد نجوت من الاختناق لأني تناولت جرعة كبيرة من عقار مخدر؛ وما أكثر ما لعنت من قبل اضطرابي الذي أبقى على حياتي لأنه منع عني النوم! لذلك اندفعت فألقيت بنفسي في يدي هذين الوغدين اللذين قاداني إلى هذه الحجرة، وفي عزمهما أن يقتلاني أثناء نومي من أجل ما كسبته من المال، وذلك بأشنع وأوثق وسيلة يقضي بها على حياتي خفية. وكم من رجال كسبوا مثل ما كسبت، وناموا فوق ذلك السرير كما فكرت أن أنام، ولم يشاهدهم أو يسمع عنهم أحد بعد ذلك! لقد ارتعدت فرائصي من الخوف لمجرد سنوح هذه الأفكار في خاطري.

ولكن تفكيري لم يلبث أن أنقطع مرة أخرى حين رأيت أعلى السرير الفتاك يتحرك من جديد، فبعد أن بقى مرتكزاً على الفراش حوالي عشر دقائق على ما أظن، بدأ يرتفع مرة ثانية؛ وذلك أن الأشقياء الذين كانوا يحركونه من أعلى اعتقدوا أن غرضهم قد تحقق وقتئذ؛ وعاد أعلى السرير المفزع إلى موضعه الأول في بطء وسكون كما نزل، وما وصل إلى نهاية الأعمدة الأربعة كان قد وصل أيضاً إلى سقف الحجرة، ولم يكن في الإمكان مشاهدة الثقب أو اللولب، وأصبح السرير سريراً عادياً في شكله لا فرق بينه وبين أعلى السرير العادي ولا تتبينه أشد العيون ارتياباً.

والآن أمكنني أن أتحرك لأول مرة، وأن أنهض وأن أرتدي ملابسي الخارجية وأن أفكر في طريقة للهرب. ولو أنني صدر مني صوت يدل على أن محاولة خنقي قد فشلت لهلكت من غير شك. فهل صدر مني أي صوت من قبل؟ لقد أرهفت أذني لأستمع شيئاً، واتجه بصري إلى الباب.

لا! ليس هناك وقع خطوات في الممر الخارجي، وليس هناك مشي في الحجرة العليا خفيفا كان ذلك أو ثقيلا، بل كان هناك سكون تام في كل مكان، وكنت قد أحكمت إقفال الباب بالقفل والمزلاج، ووضعت خلفه صندوقا خشبياً قديماً وجدته تحت السرير، بدا لي أني لا أستطيع أن أحرك هذا الصندوق (وقد برد الدم في عروق حين فكرت فما عسي أن يحتويه) من غير أن أحدث شيئا من الضوضاء، ثم إن التفكير في الهرب باختراق المنزل وهو مقفل الآن أثناء االليل كان هو الجنون بعينه، فلم يبق أمامي إلاّ طريق واحد وهو النافذة فتسللت إليها على أطراف أصابعي.

وكانت حجرة نومي في الطابق الأول تطل على الشارع الخلفي فرفعت يدي لأفتح النافذة، وكنت أعرف أن فرصة النجاة بهذه الحركة معلقة بشعرة، فإن الرقابة تكون دقيقة في بيوت القتل، وإذا سمع صرير لأي جزء من إطار النافذة، فإنني هالك لا محالة! وما من شك في أن فتح تلك النافذة قد استغرق خمس دقائق بحساب الزمن، وخمس ساعات بحساب حيرتي وارتيابي، وأفلحت ففتحتها في هدوء مستعيناً بكل ما وهب لصوص المنازل من مهارة، ثم نظرت إلى الشارع من تحتي ووجدت أنني أكاد أهلك لا محالة إذا قفزت من النافذة، ثم نظرت بعد ذلك إلى جوانب المنزل، فوجدت إلى الجانب الأيسر أنبوبة مياه سمكية مارة بالطرف الخارجي للنافذة، فلم أكد أراها حتى أيقنت النجاة، ولذلك تنفست للمرة الأولى مذ شاهدت أعلى السريير يطبق عليّ.

ولربما بدت طريقة الهرب التي كشفتها صعبة وخطرة في نظر بعض الناس، أما أنا فإن فكرة الانزلاق على أنبوبة الماء لم توح إليّ ولو مجرد إيحاء

بفكرة الخطر. لقد عودتني على الدوام ممارستي الألعاب الرياضية في ماضي حياتي أن أحتفظ بما كان لي في حداثة سني من قدرة على التسلق بجرأة ومهارة، وكنت أعرف أن رأسي ويدي وقدمي ستكون نعم العون لي إذا تعرضت لخطر الصعود أو النزول، وكنت قد وضعت إحدى رجليّ على عتبة النافذة حين تذكرت المنديل المملوء بالنقود تحت الوسادة. ولقد كان يسعني أن أتركه ولكني صممت على الانتقام من الأشقياء أصحاب دار الالقمار بأن أحرمهم المال الذي يريدون أن ينهبوه، كما حرمتهم فريستهم، ولذلك عدت إلى السرير وربطت المنديل الثقيل على ظهري برباط رقبتي.

ولم أكد أربطه وأثنته في مكان مريح حتى خيل إلي أنني أسمع تنفساً خارج الباب، وانتابني مرة أخرى شعور الفزع، وبرد جسمي وأنا أصغي إلى هذا الصوت. لا! لقد كان يسود الممر سكون عميق وكل ما في الأمر أنني سمعت هواء الليل يهب ببطء في الحجرة. وبعد لحظة ثانية كنت على عتبة النافذة، وفي اللحظة التي تلتها كنت أقبض بشدة على أنبوبة المياة بيدي وركبتي.

وانزلقت إلى الشارع في يسر وهدوء، وأخذت أعدو بأسرع ما أستطيع نحو مركز الشرطة في هذا الحي، وكنت أعرف أنه في مكان قريب للمنزل. وكان يقوم بالعمل وقتئذ ضابط وبعض رجال الشرطة، ولما بدأت أسرد قصتي بسرعة وبلغة فرنسية سقيمة، وأحسست أن الضابط مشتبه في أني إنجليزي ثمل سرقت مال شخص ما، ولكنه سرعان ما غير رأسه حينما واصلت حديثي. وقبل أن أنتهي من قصتي وضع كل الأوراق التي أمامه في درج مكتبه، وليس قبعته، وأعطاني قبعة أخرى (لأنني كنت عاري الرأس)،

وكلف شرذمة من رجاله بإعداد كل الأدوات اللازمة لكسر الأبواب وفتحها وخلع الأرض. وأمسك بذراعي بأعظم ما يتصور من الألفة والمودة مرحبا.. وأخذ يتهيأ لما ينتظره من عمل في دار المقامرة، فهو ذاهب ليشاهد تمثيلية في مسرح لأول مرة في حياته.

واخترق الرجل الشوارع وهو يلقي عليّ الأسئلة ويهنئني في وقت واحد أثناء سيرنا على رأس كتيبة الشرطة الشديدة البأس. ولما وصلنا إلى المنزل وضع بعض رجاله أمامه ومن خلفه لحراسته، فظهر نور في النافذة وطلب إلي أن أخف رجال الشرطة، ثم توالى الطرق مصحوباً بنداء «افتح باسم القانون!». فلما سمع من في الداخل هذا النداء الرهيب فتحت الأقفال والمزالج بأيد خفية، ولم تمض إلا لحظة حتى كان الضابط في الممر يواجه خادما قليل الثبات شاحب اللون، فدار بينهما الحدث القصير التالي.

«نريد أن نشاهد الإنجليزي النائم في هذا المنزل!».

«لقد غادر المكان من ساعات».

«إنه لم يخرج، فقد غادر صديقه المكان، أما هو فقد بقي فأخذناه إلى حجرة نومه!».

«أقسم يا حضرة الضابط أنه ليس هنا، إنه...».

«أقسم أيها الخادم أنه هنا، لقد نام هنا، ولكنه لم يجد فراشكم مريحا، فجاء إلينا ليشكو منه، وهو هنا بين رجالي، وهأنذا قد حضرت لأنظر في الأمر بنفسي، يا روميودين (مناديا أحد رجاله ومشيرا إلى الخادم) خذ بعنق

هذا الرجل وشد يديه إلى خلفه. والآن فلنذهب إلى الدور العلوي أيها السادة».

وقبض على كل رجل وامرأة في المنزل، وكان الجندي القديم أول المقبوض عليهم، وأرشدهم إلى السرير الذي كنت نائماً عليه، ثم انتقلنا إلى الحجرة التي تعلوه.

ولم يبد في أية ناحية منها أي شيء خارق للعادة. ونظر الضابط في أنحاء المكان وأمر كل شخص أن يصمت، وضرب بقدمه الأرض مرتين، وأمر بإحضار شمعة، وأخذ يتفرس في المكان الذي يصر به، وأمر بنزع الأرض من فوقه، وتم ذلك في أقل من لمح البصر. وجيء الأنوار وشاهدنا حفرة عميقة بين أرض هذه الحجرة وسقف الحجرة التي تحتها، فكان يخترق هذه الحفرة شيء أشبه بصندوق من الحديد، يقوم فيه عموديا، وعليه كثير من الشحم، وبداخله اللولب المتصل بالجزء الأعلى من السرير أسفل منه. وكانت هناك أطوال إضافية من اللولب والروافع المغطاة بقماش سميك، وجميع العدد العليا من مكبس ثقيل وضعت كلها بمهارة كمهارة الشياطين، بحيث تثبت في مواضع أسفل منها. فإذا فصلت بعضها عن بعض مرة أخرى شغلت أصغر مكان مستطاع.

كشف الضابط هذه الأشياء بعدئذ وانتزعها ووضعها على الأرض، وأفلح بشيء من الصعوبة في تركيب الآلة، وترك رجاله يحركونها، ونزل هو معي إلى حجرة النوم، ثم أنزل السرير الخانق ولكنه لم يصحبه ذلك السكون التام الذي صحبه حين شاهدته من قبل، ولما أخبرت الضابط

بذلك أجاب جواباً سهلا، ولكنه كان ذا معنى رهيب، فقد قال: «إن رجالي ينزلون أعلى السرير للمرة الأولى أما الرجال الذين كسبت أموالهم فهم أكثر من هؤلاء خبرة».

وتركنا المنزل في حراسة رجلين لا أكثر من رجال الشرطة بعد أن نقل كل من كان فيه إلى السجن، وبعد أن دوّن الضابط شهادتي في المخفر عاد معي إلى الفندق ليأخذ جواز سفري، وسألته وأنا أعطيه إياه: «هل تعتقد أن أشخاصاً غيري قد اختنقوا في هذا السرير الذي حاولوا خنقي فيه؟».

فأجابني قائلا: «لقد شاهدت عشرات من الغرقى يؤتى بهم لفحصهم، وقد وجدنا في دفاتر جيوبهم خطابات تقول إنهم انتحروا بأن ألقوا بأنفسهم في نهر السين لأنهم خسروا كل ما يمتلكونه على منضدة القمار، فهل في وسعي أن أعرف كم منهم دخل هذه الدار التي دخلتها أنت، وربحوا كما ربحت، وآواوا إلى السرير كما آويت، وناموا فيه كما نمت، واختنقوا فيه ثم ألقيت جثتهم في النهر واحداً بعد واحد، ومعهم خطابات كتبها القتلة أنفسهم، ووضعوها في دفاتر جيوب الضحايا؟ إن أحدا لا يستطيع أن يعرف عدد أولئك الذين لاقوا المصير الذي نجوت أنت منه، وهل كان عددهم كثيراً أو قليلاً؟ ذلك أن رجال دار القمار قد أخفوا سر آلة سريرهم عنا واحتفظ الموتى بباقي السر بدلا منهم. أرجو لك ليلة سعيدة، أو على الأصح نهاراً سعيداً يا مستر فولكنر، وعليك أن تعود إلى مخفر الشرطة مرة أخرى في الساعة التاسعة، والآن إلى الملتقى!

أما باقي القصة فلا تحتاج إلى شرح طويل، فقد استجوبت المرة بعد

المرة، وفتش المنزل تفتيشاً دقيقاً في جميع أجزائه، ومن أعلاه إلى أسفله، وسئل المتهمون على انفراد، واعترف اثنان منهم كانا أقل جرما من غيرهم، وعرفت أن الجندي القديم كان صاحب دار المقامرة، ودلت التحريات القضائية على أنه كان قد طرد من الجيش من سنوات عدة بتهمة النصب والاحتيال، وأنه ارتكب بعدئذ عدة جرائم مختلفة الأنواع، وأنه يخفي أشياء مسروقة عرفها أصحابها، وأنه هو والرقيب والمرأة التي أعدت فنجان القهوة كانوا على علم بسر السرير. أما خدم الدار فلم يعرف على وجه التحقيق هل كانوا على علم بآلة الخنق أو لم يكونوا، ففسر هذا الشك في مصلحتهم، ولم يعاملوا إلا معاملة اللصوص والنصابين. أما الجندي القديم ومساعداه فقد حكم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة، وحكم على المرأة التي وضعت المخدر في القهوة بالسجن سنوات لا أعرف عددها، وعد المترددون بانتظام على دار القمار من الذين يرتاب في سلوكهم ووضعوا تحت رقابة الشرطة. أما أنا فقد ظللت أسبوعاً بطل المجتمع الفرنسي، وألف أحد كتاب المسرحيات مسرحية تصف مغامراتي، ولكنها لم تظهر أبدا على المسرح، لأن الرقيب منع عرض صورة حقيقية لسرير دار المقامرة في دور التمثيل.

وكان لهذه المقامرة نتيجة طيبة واحدة، لا يسع أي رقيب إلا أن يوافق عليها، فقد كانت لي علاجاً من اتخاذ المقامرة بالأبيض والأحمر وسيلة للتسلية. وسيظل منظر المائدة الخضراء وما عليها من أوراق اللعب وأكوام النقود مقترنا في عقلي بعد الآن بمنظر أعلى سرير يهبط ليخنقني في سكون الليل البهيم.

النخلة ذات الجرس

ألن فوجان إلستن

كانت هذه النخلة كغيرها من النخيل مائلة نحو البحر، وكانت أطول شجرة من نوعها على الشاطيء، فقد كان لها جذع طويل رفيع، يعلو عن الأرض تسعين قدماً، وينتهي بمجموعة من الأغصان الريشية كثيرة الحركة، وكانت تنبعث منها مع كل حركة نغمات متناسقة لأن جرساً كان معلقاً في أعلاها، لا ينقطع رنينه إلا حين تكون الريح ساكنة.

وكان الجرس في ذلك الوم يدق كالمتعاد كلما هب النسيم، وكان في وسع الفتاة المولدة التي تسكن تحته في المنزل المسقف بالكلأ أن تسمعه بطبيعة الحال، وإلا لبقيت خارج البيت تتطلع إلى الطريقين الممتدين إزاء الشاطيء، وكثيراً ما كانت تتضاق حين تسكن الريح وزوجها بعيد عن المنزل.

ولكن مقدور (دك كندي) أن يسمع الجرس الآن بوضوح، وكان في الوقت الذي نتحدث عنه يصاد في قارب على بعد ميلين أو نحوهما من الماء الضحل، وكانت تغطي رأسه خوذة بالية ماحلة اللون، وكانت رجلاه عاريتين، وكان في ثياب لم يلبس أرث منها رجل من البيض، ولكن كان في مقدوره أن يسمع الجرس وكانت أشعة الشمس تضيء وجهه القانع القوي الملتحي.

وجذب الخيط مرة أخرى فجأة فظهرت سمكة سمينة. واستدل على نوعها

بأصابعه، فقد كانت له حاسة اللمس الدقيقة التي يمتاز بها المكفوفو البصر.

ثم أخرج الخيط مرة أخرى، وكان يسمع دائماً صلصلة ذلك الجرس البعيد، فتذكر ما قالته (إيلا) في ذلك اليوم الذي أخذت فيه الجرس من بقايا مؤسسة للتبشير حطمتها عاصفة هوجاء، وتسلقت النخلة لتعلقه في أعلاها «حتى لا تضل الطريق يارتشرد».

إيلا! لقد كانت دائماً في انتظاره، فلم يكن عليه إلا أن يتجه بقاربه نحو الصوت السحري فيجدها هناك. وإلا وجد نفسه قد ضلّ الطريق في الحراج، فلم يكن عليه إلا أن يتجه صوب الجرس ويسير نحوه حتى يجد نفسه بين ذراعيها اللطيفتين، وكان لا يشك في أنها جميلة وإن لم ير وجهها من قبل، ذلك أن صدمة انفجار في حجرة مرجل السفينة قد سلبت كندي قوة بصره قبل أن يِترك بلا نصير على هذا الساحل، فأخذته وأعتنت به حتى عادت له قوته ثم ركبا سفينة تجارية ليزوجهما رئيس بحارتها.

أما (هونز) الذي كان يدير المخزن الوحيد في الجزيرة فقد اعتاد أن يشير إليهما باحتقار قائلاً إنهما «ذلك الأعمى الذي لا يصلح لشيء وامرأته». ولكنهما لم يهتما بهونر، فابتعدا عنه وعاشا عيشتهما الساذجة تحت النخلة ذات الجرس. واتجه دك كندي الآن بقاربه نحو منزله ولم يلبث أن سمع إيلا تصيح من الشاطيء:

«أسرع يا رتشرد، فإن عندي لك مفاجأة عجيبة!» وجاءته تخوض في المياه الضحلة، وقبل أن يستقر قاربه طوقت بذراعيها عنقه بشوق كاد أن يقذف به في الموج.

ثم أعادت بإبتهاج قولها «إنها مفاجأة سارة يا رتشرد»، فقال لها وهو يضحك «أهو شيء طيب يؤكل؟

فقالت وهي تقرص خده مداعبة «آه، إنك كغيرك من الرجال قلبك في معدتك؛ لكن تعال معي».

فخاض إليها الماء حتى ركبتيه وساعدها على إرساء القارب على الشاطيء، وكانت إيلا لا تزال منفعلة ولم تهتم بما اصطاده من السمك، فأخذت بيده ودفعته للجري معها إلى المنزل. وكان بناء من ثلاث حجرات نظيفة نرتبة، وكانت الحجرة الرئيسية مفروشة بمجموعة مقاعد من الخوص المجدول أهداها لهما ربان صديق، وكانت أستاره مصنوعة من أوراق نوع من النبات ينمو في ذلك المكان ترفع وتنزل على ثلاثة جوانب منه.

ورقصت إلا حوله وهي تقول مبتهجة: «انظر يا رتشرد! المفاجأة العظمى!».

فضايقته كلماتها، لأن مطالبتها إياه بالنظر دلت على أنها كانت منفعلة أكثر مما ينبغي.

وأمكنه أن يتحسس الشيء الذي وضعته في كفه، فقد كان ناعماً مخملي الملمس.

وصاحت إيلا قائلة: «إنها لؤلؤة جميلة يا رتشرد، لؤلؤة سوداء، أجمل ما رأته عيناي».

فسألها قائلا: «هل كنت تغوصين في المياه يا إيلا؟» فأجابته بأنها لم

تفعل، بل كل ما فعلته أنها قضت النهار تبحث في كومة من القواقع استبدلها بحارة إحدى السفن من عدة أسابيع بماء قارب من السمك، وأنها وجدت في إحدى الأصداف هذه اللؤلؤة العجيبة.

ثم همست قائلة: «إنها لؤلؤة لا يراها الإنسان إلا في الحلم، وسأخبرك بعد قليل كيف تستفيد منها، ولكن فلننتظر حتى آتيك بشيء من الطعام».

وظلت الفتاة تثرثر بمحاسن اللؤلؤ في الوقت الذي كانت تعد فيه طعاماً من السمك والفاكهة، ثم ملأت قصبته وأشعلتها له، فجلس جلسة مريحة متمدداً على حصير من الحشائش ورأسه في حجرها، وشعرها الأسود المرسل يتدلى بلطف لى جبينه، فشعر بسعادة تغمره، ونسى اللؤلؤة التي كان يمسك بها والتي لم يكن في مقدوره أن يراها، ولم ير في عماه شراً إلا أنه يحرمه رؤية وجه إيلا. وسمع حفيفا حينما خرجت من تحت الحصير إحدى جرائد أوكلاند كان قد تركها على الشاطيء بحار آخر سفينة للبريد، ثم قالت له وهي لا تستطيع التنفس: «لم أقرأ لك هذا من قبل لأنه لم يكن فيه نفع، أما الآن فالأمر يختلف كل الاختلاف، فنحن الآن أغنياء، أليس كذلك يا رتشرد؟» فقاطعها: «ما هذا القول يا إلا؟».

فقالت: «هناك طبيب عظيم يقيم هذا الشتاء في بابيت، وتقول هذه الصحيفة إنه ساعد كثيرين من العمي على استعادة قوة إبصارهم». قرأت إيلا ذلك بصوت مرتفع، وكان نبذة من صفحة داخلية، وفيها وصف لمقابلة رمدي عالمي يدعى ستانيماير، كان يقضي فترة استجمام في البحار الجنوبية،

وكان يخته راسيا الآن في (بابيت)، حيث كان يقيم في عشة يقضي فيها ذلك الفصل.

وقد قال ستانيماير كما جاء في هذا الحديث: «ليس هناك أمل في شفاء العمي إّن كان يرجع تاريخه إلى مولد الشخص، ولكن قد يكون من الممكن شفاء العمى الناتج عن صدمة جسمية حدثت متأخرة في الحياة».

وحينئذ تنهد كندي قائلا: «يبدو هذا الكلام حسنا لسامعه، ولكني لا يخالجني شك في أن مثل هذا الإخصائي يتقاضى أتعاباً كبيرة».

فوافقته على ذلك قائلة: «طبعا، ولكن يمكننا أن ندفع له الآن هذه اللؤلؤة».

«أتقصدين أنه يمكننا أن نجيء به طول هذه المسافة من بابيت؟ ألف ميل؟».

فأجابته بإصرار: «لا شك في أنه سيأتي مقابل هذه اللؤلؤة الجميلة».

فقال كندي متشككا: «قد يكون هذا إذا كانت تساوي ما يكفيه، وخير لنا أن نعرف ذلك من خبير، وسأذهب وأسأل هونر، وهو رجل خبيث نصاب، إلا أنه ذو خبرة باللآليء».

وكانت جزيرة يولوهو المنخفضة قليلة السكان، وكان أهلها يعيشون في قريتين عند طرفها، وكانت الحراج التي تكتنفها والمستنقعات في داخل البلاد عديمة السكان، وكان مخزن هونز ومكتب البردي في وسط الطريق بين القريتين. ولما كان طول الجزيرة حوالي عشرة أميال وعرضها ستة، فقد

كان هونر على مسافة خمسة أميال من كلتا القريتين. وكان الوطنيون لا يثقون بهونز، ولذلك فإنهم قلما ما يأتون إليه إلا إذا كانت لديهم أصداف أو ثمار جوز الهند يريدون أن يبيعوها له أو يبادلوا بها.

أما الكوخ المسقف بالكلأ والقائم تحت النخلة ذات الجرس فلم يكن يبعد عن المخزن أكثر من بضع ياردات، وكان في إمكان هونر أن يسمع رنين الجرس كلما هبت الرياح، وسرّه الغرض الذي وضع الجرس من أجله، فقد كانت له مقدرة عجيبة على المجون والدعابة القاسية التي تجعله أقدر ما يكون على الضحك حين يرى العجز أو البؤس. وكان رجلاً بادنا أحمر الوجه، ذا عينين صغيرتين تنمان عن الدهاء، وعقل لا ينقطع عن الكيد لجميع من يأتون إلى الجزيرة، ولولا أن الشخصين اللذين يؤديان وظيفة الكتبة له كانا يطعمان في زيادة أجورهما لتركا خدمته من زمن طويل، ولو أن تاجراً آخر من البيض قد وجد في الجزيرة لنَقل من عنده من زمن طويل مكتب البريد الذي كان جزءاً من مخزنه.

وكانت ترسو في الجزيرة باخرة صغيرة كل شهر لتنقل منها البريد وما قد يجمعه هونر من جوز الهند أو الأصداف، ومع أن هونر لم ير قط في الفترة الواقعة بين مجيء كل سفينتين رجلا من البيض غير كندي، فقد كان يستمتع بعزلته ويحب أن يجلس منفرداً ومعه زجاجة من الخمر، ويشرب حتى يأخذه الزهو والاغترار بنفسه.

وقلما كان كندي يسمح لإيلا أن تدخل المخزن، ولكنها في ذلك المساء وصلت معه إلى السلم، ولم يجتزه هو، وهناك انتظرت بينما كان

كندي يتحسس الطريق بعصاه مخترقاً الردهة ثم الباب. وكان هونر جالساً عند المنضدة يحتسي الخمر، ولم يعرف كندي أنه هناك إلا حين ناداه بعنف قائلاً: «ماذا تريد؟».

فتقدم كندي ومعه اللؤلؤة السوداء في كفه وقال له: «هل يمكنك أن تعطيني فكرة عامة عن قيمتها يا هونر؟».

وحينئذ تملكت هونر حمى الطمع، وكانت رغبته في اقتنائها على الفور أشد من رغبته في أي شيء آخر طول حياته، فقد كانت كبيرة الحجم تامة التكوين ينعكس ضوؤها عليه كأنه نور سحري. وعقد بريقها لسان هونر فترة من الزمان فلم ينبس ببنت شفة، فقد شاهد لآلِيء كثيرة جميلة من قبل ولكنه لم ير لهذه اللؤلؤة نظيراً.

وكان من رأيه أنها تعد منحة لو اشتراها بمائة ألف ريال، وكان يريد أن يسأل: «أين حصلت عليها؟» ولكن دهاءه زَمَّ عينيه ومنعه أن يلقي هذا السؤال، ثم هداه تفكيره إلى أن هذا الرجل الكفيف البصر لا يمكن أن يكون قد شاهد اللؤلؤة، ولذلك كان من السهل أن يخدع.

وبعد جهد سأل هونر بغير اكتراث «اسمح لي أن أراها» وأخذ اللؤلؤة من يدى كندي، فارتجفت يده لثقلها ودفئها، واقترب بها من النور وحدثته نفسه أن وزنها لا يقل عن ستين قمحة لؤلؤية. وكانت لامعة كاملة التكوين.

وسأله كندي مرة أخرى: «كم تساوي؟» وكان يتوقع جواباً كاذبا من هونر، ولكنه مع ذلك كان يطمع في أن يستنتج شيئاً عن قيمتها الحقيقية من إجابة الرجل الخادعة نفسها.

وقال هونر في حذر: «اسمح لي أن أضعها تحت المنظار».

ثم سار وراء المنضدة وأسقط اللؤلؤة في جيب قميصه، وكان تحت المنضدة صندوق به خرز ناعم مستدير مختلف الإحجام والألوان يبادل به الوطنيين ثمار جوز الهند والأصداف.

وعرف كندي الشيء الكثير من مبالغة هونر المكشوفة في ضآلة التقدير؛ ولم يكد هونر يضع الخرزة في كفه حتى شعر بسرعة بأنه بدَّلها، ذلك أن حاسة لمسه كانت من القوة بحيث يستطيع أن يميز بها ملمس اللؤلؤة الحقيقية.

وأعاد كفيف البصر قوله «شكراً»، وقبض بيده اليمنى على الخرز واستعد للكم غريمه، واستدل على بعد فكَّه من رائحة الخمر الخارجة من نفسه.

وعرف كندي أن هذا الصراع لابد أن ينتهي بضربة واحدة؛ وجاءت هذه الضربة إلى ذق هونز قبل أن يعرف أنها مقبلة عليه، فلما تلقاها التاجر انطرحت قدماه إلى الإمام وانطرح رأسه إلى الوراء، واصطدم بالمنضدة، وسقط على الأرض. ولما أفاق بعد بضع دقائق وجد نفسه وحيداً في المخزن. ثم وضع يده في جيب القميص وهو غضبان أسِف فلم يجد اللؤلؤوة مكانها، بل وجد الخرزة الزجاجية، فأسرع وهو في شدة الغضب إلى الباب مستطلعاً، فشاهد إيلا وزوجها يسيران على الشاطيء، يمسك كل منهما بذراع صاحبه، وكان الجرس يدق فوقهما برنين طيب يحمله النسيم العليل.

وأيقن أنهما أخفيا اللؤلؤة، ولكنه أقسم بصوت غليظ أنه لابد حاصل

عليها إذ لا يوجد تحت قبة السماء العالية ما يسلبه إياها.

ومع ذلك لم يهتد هونز إلى طريقة لاستعادتها حتى صباح يوم البريد الثاني، ففي صباح ذلك اليوم جاء كندي وإيلا مرة أخرى إلى المخزن، وجاءا هذه المرة متماسكين باليدين ليرسلا خطاباً بالبريد، وكان هرنر واجما عند المنضدة وفكه لا يزال يؤلمه من لطمة كندي.

وأكد كندي لإيلاء أن الرسائل التي توضع في صندوق البريد لا يخشى عيلها قط، ولذلك ذهبت مباشرة إلى الصندوق عند نهاية المنضدة النائية ووضعت فيه خطاباً رقيقاً مستوياً، ثم أمسكت بذراع كندي وغادرت المكان، ولم يتبادل هو أو هي كلمة واحدة مع هونر.

وبعد أن غادرا المكان، صبَّ هونر لنفسه كأساً أخرى، وذكره الخطاب بأن موعد باخرة البريد اليوم، وقد آن أن تعد حقيبته، وأخذ يفكر فمن عساه أ يرسلا له الخطاب؟ وهل فيه أخبار عنه؟ فقد يشكوان للإدارة محاولته سرقة لؤلؤة، وبذلك يؤملان في أن يحرماه من وظيفته.

واتجهت عينا هونر تتطلعان إلى صندوق البريد، وكان من السهل العثور على الخطاب، ولم يكن من العسير فتحه بعد تعريضه للبخار.

ومن أجل ذلك أرسل الكاتبين في مهمة إلى خارج المخزن وحصل على الخطاب، وما كان أشد دهشته حين وجد أنه معنون باسم طبيب يدعى الدكتور ستانيماير في بابيت، فأخذه من غير أن يشعر بشيء من تأنيب الضمير وذهب إلى المطبخ وفتحه على البخار وقرأ.

«عزيزي الدكتور ستانيماير.

«إن زوجتي هي التي كتبت الخطاب بدلاً مني، لأنني كفيف البصر من ثمانية أشهر على أثر صدمة، فإذا جئت إلى هذا المكان وفعلت ما تستطيع فعله لرد بصري إليّ، فإن أجرك سيكون لؤلؤة سوداء كاملة التكوين لا يقل وزنها عن خمسين قمحة.

«فهل تحضر؟ إنني أقيم على الشاطيء عند خليج هونر بجزيرة (يولوهو) في منزل تحت ذات الجرس.

المخلص (رتشرد كندي)

وضحك هونر وكشف عن أسنانه في خبث، ثم حرق الخطاب حتى أحاله رماداً وكتب خطاباً آخر بنفسه وعنونه باسم دافد ككسن في (أبيا) في جزائر ساموا وختمه بالتحذير التالي:

«واحرص يا ديف على أن تظل بعيداً عني حتى تستحوذ على اللؤلؤة، وإلا فإنهما سيرتابان في أمرك».

ولما غادر ديف ككسن (أبيا) بعد شهر على الباخرة (نار كوسا) أطلق على نفسه اسم الدكتور ستاينماير. ومثل ككسن دوره خير تمثيل، فأهتم بجميع التفاصيل، وغطى وجهه بلحية ومنظارا ذوي حافتين ذهبيتين، ولبس حلة أنيقة بيضاء أعانته من قبل على أن يكون نصابا من الطراز الأول بيم ركاب البحار، وملأ حقيبة الأطباء التي كانت معه بأنواع كثيرة من الآلات الطبية، وكانت تنبعث منها رائحة الأحماض والمطهرات القوّية.

ولما ألفت نار كوسا مرساها في الماء الضحل عند خليج هونر، سمع

ككسن في الحال رنين الجرس المعلق في النخلة، وشاهد المنزل من تحتها فتنهد، وأدرك أنه لا يصح له أن يغادر الجزيرة على ظهر هذه السفينة ذاتها، ذلك أن نار كوسا لن تبقى في ذلك المكان أكثر من بضع ساعات، ولابد أن يقضي هو بضعة أيام حتى يبدو علاجه مقنعا.

ولما غادر ككسن السفينة كان هونر واقفا بجوارها، ولكنه مر أمامه من غير أن تبدو منه أقل إشارة على أنه يعرفه، ونزل القادم الجديد على الشاطيء والحقيبة في يده في نشاط الأطباء المحترفين، واتجه نحو النخلة ذات الجرس، وطرق باب المنزل الصغير القائم تحتها.

ولما فتح الباب ذهل لجمال السيدة الرائع المنقطع النظير، لكنه استعاد رباط جأشه، وسأل بلهجة أمريكية قوية: «هل هذا منزل المستر كندي؟ فأنا الدكتور ستانيماير وقد حضرت إجابة لرسالته».

وحملقت فيه إيلا بعينيها زادت دقات قلبها سرعة. إنها لم تكن تجرؤ على أن تؤمل أن الطبيب العظيم سيأتي حقاً.

وصاحت قائلة: «لقد حضر يا رتشرد».

ولم يكن من السهل أن يصدق ذلك كندي، ولكنه لم يلبث أن تحقق منه حينما وجد الرجل يصافحه بحرارة، وشم رائحة الأدوية المنبعثة من الحقيبة.

وسألت إيلا بلهفة: «هل يمكنك حقيقة أن تعيد إليه بصره؟»

فمر ككسن بيده على لحيته، وابتسم وهو يقول: «ومن يدري يا مستر كندي؟ إن لكل حالة ظروفها المختلفة، وليس لنا إلا أن نرجو الخير».

وبدأ بحثه فوراً، وطلب ماء مالحاً دفيئاً، وكلف المريض أن ينام على فراش، وغسل وجهه بخفة، ثم أخرج أنواعاً متعددة من العدد والعدسات، وقضى عدة دقائق في دراسته ينظر في عيني كندي المكفوفتين من خلال عدسة بعد عدسة، ثم أخرج مجموعة من أنابيب الاختبار والقنينات محتوية على سوائل ملونة، منها أحماض شديدة الرائحة لم يكن الغرض من اختيارها إلا مجرد التغرير بإيلاء، ومنها محاليل غير ضارة من المياة القرنفلية والخضراء والزرقاء، ووضع ثلاث نقط من مياة قرمزية اللون من قطارة في كل عين، وبعد أن انتظر نصف ساعة بالضبط، وساعته في يده، فحص العينين مرة ثانية بإحدى العدسات، وربت على جبهة المريض بأصابعه الطويلة النحيلة، ثم وضع في كل عين ثلاث نقط من المحلول الأخضر، وصدقت إيلا هذا كله واقتنعت به.

وأخيراً بعد ساعات من الانتظار قال ككسن: «إن لدي أنباء طيبة لك يا مسز كندي، لقد صادفت حالة مشابهة لهذه في الكونغو البلجيكية، ولذلك فإنني أعرف بالضبط ما يجب عمله، وإذا أمهلتني ثلاثة أيام، فإني أرجح جداً أن يستعيد زوجك بصره».

وصمتت إيلا بعد ذلك فلم تنبس ببنت شفة، فقد تورد وجهها أملا في شفاء زوجها، وضغط كندي على يد إيلا وهمس بعبارات الشكر لككسن.

ثم تنحنح ككسن وقال بلهجة الاعتذار: «وهناك مسألة الأتعاب، لقد كلفني الطريق الطويل مصاريف باهظة».

فقالت إيلا بسرعة: «طبعاً إنك راغب في مشاهدة اللؤلؤة» ثم غابت بضع ثوان قليلة، وعادت واللؤلؤة في يدها.

فلا رآها ككسن أبرقت عيناه، ودفعه تلألؤها إلى أن يقبض عليها بيده بعنف، إلا أنه استطاع أن يتغلب على ما بدا من شدة حرصه.

وكان ككسن خبيراً بالآلِيء أكثر من هونر نفسه.وبعد أن وزنها في كفه لحظة وضعها في جيبه واتجه بسرعة نحو المريض وقال: «ستغطي هذه كل النفقات».

وبعد أن أمر بأن تدلى الستائر المصنوعة من ورق الأشجار حتى لا يتسرب ضوء الشمس إلى الحجرة، عاد إلى علاجه المصطنع، فأخرج نقطاً خضراء وزرقاء وقرنفلية، ومزج السوائل، وصب الحمض من زجاجة إلى أخرى حتى يتأثر المريض وزوجته بالرائحة، وجلس ساعات على حافة السرير يدلك جبهة كندي، ثم ربط العينين ربطاً شديداً وقال: «حسبنا هذا اليوم».

وكانت الباخرة نار كوسا قد خرجت من الماء الضحل إلى البحر وتأوى ككسن حسرة لأنه لم يمكنه العودة فيها، ولكنه كان على الدوام فخوراً بقدرته على إتقان الخداع، ولهذا أعدّ لنفسه فراشاً بجانب كندي ونام عليه ثلاث ليال، وتظاهر خلال الثلاثة أيام بأنه يعالج المريض بمهارة ونشاط، وغير الأربطة مراراً كثيرة، ووضع في عين كندي مرة بعد مرة النقط الزرقاء والقرنفلية والخضراء، وبقيت إيلا إلى جانبه ترجوه أن يسمح لها بأن تساعده، ولكنه كان يخرجها من الحجرة في معظم الوقت،

إذا لم يكن يؤلم ككسن قط أن ضحيتيه سيلاڤيان مأساة من الخيبة المريرة. وبعد عصر اليوم الثالث لف الرباط لفاً محكماً حول رأس كندي: ثم ألتفت إلى إيلا متظاهراً بالفوز وقال:

«إنني واثق كل الثقة بأنني نجحت يا مسز كندي، وأظن أنه سيرى وجهك الجميل غداً حين ترفعين الأربطة».

وركعت إيلا على ركبتيها بجوار الفراش وهي تبكي، وألقت بذراعيها حول زوجها وقالت: «هل تسمع يا رتشرد؟ غداً سترى».

فقبلها كندي وقال: «غداً لن يكون ظلام».

وهب في الخارج نسيم، فهز جريد نخلة وغنى لهما جرس نشيد الأمل.

وظل هونر ينتظر في متجره ثلاثة أيام نفد فيها صبره، وكان لابد له أن يسوي حسابه مع ككسن، ولما كان ككسن نفسه رجلا محتالا، فإنه سيحاول خديعة هونر.

وتمتم هونر قائلا: «لابد أن أحصل على نصيبي أولاً».

وأخيراً ظهر ككسن، فسأله هونر بخشونة: «هل حصلت عليها؟»

فكش ككسن عن أسنانه حين عرض عليه اللؤلؤة واختطفها هونز بقوة، كأنما كان يلتهمها بعينيه، في الوقت الذي جلس فيه ككسن وصب لنفسه كأساً من الخمر.

وسأل هونر هذا الكلام ضاقت عيناه إذ كان في مقدوره أن يقرأ ضمير ككسن كما يقرأ في كتاب، ولكنه كان من الخبث بحيث يستطيع ألا

يظهر شيئاً من الارتياب فيه، وسأله: «وما مقدار المبلغ الذي تظن أنا سنحصل عليه يا ديف؟».

«لم أجد أية صعوبة في الحصول على عشرة آلاف ريال، وقد نحصل على أكثر من هذا القدر، ولربما حصلنا على أقل منه قليلاً. وسأخبرك عما سأفعله يا هونر، سأجازف أنا بنصيبي وأقدم لك الآن تحويلا بخمسة آلاف، واحتفظ باللؤلؤة لنفسي».

وكاد هونر أن يضحك استهزاء، سيعطيه ككسن تحويلا ولكنه تحويل لا قيمة له بطبيعة الحال، ومع ذلك فقد أخفي ريبته مرة ثانية؛ ولو أنه كف عنها لأفسد على نفسه المؤامرة التي كان وقتئذ يدبرها في عقله، وقال. «فلتجعلها ستة آلاف يا ديف ولتكن اللؤلؤة لك».

وأخرج ككسن من فوره دفتر التحاويل وكتب تحويلاً، وناوله هونر اللؤلؤة.

ثم سأل ككسن: «وكيف يمكن الآن أن أخرج من الجزيرة؟» فأجابه هونر: «لقد رتبت كل شيء».

وكان قد أوضح له في خطابه أن كندي، وإن يكن كفيف البصر، قد يكون رجلا لا يسهل التغلب عليه إذا انكشفت له الحيلة، وأضاف هونر إلى ذلك أن كندي قد لكمه في فكه، «ثم إن في إمكان تلك الفتاة أن تهاجمك والسكين في يدها».

وحينئذ هز ككسن رأسه وقال: «وماذا تشير به؟».

«عليك أن تغادر هذا المكان قبل الفجر يا ديف، إن أمامك مسيرة ستة أميال، ولكنه الطريق الوحيد للنجاة».

– «مسيرو ستة أيام– إلى أين؟».

– «مخترقاً الجزيرة إلى مزرعة قديمة مهجورة على الشاطيء الشمالي، وقد أعددت العدة لكي يلتقطك قارب صيد لبعض أهل البلاد غداً حوالي غروب الشمس، ويمكنه أن ينقلك إلى جزيرة ريدر»

فقطب ككسن وجهه، لأنه لم يعجبه أن يسير في الغابة مسافة ستة أميال، وعارضه قائلاً: «ولنفرض أنني ضللت الطريق؟»

فقال له هونر بصفة التأكيد: «لن يتاح لك أن تضل الطريق وسأريكها بنفسي».

وبدأ ضياء الفجر يتلألأ حتى خرج الرجلان ومع هونر تحويل لا قيمة له، ومع ككسن اللؤلؤة، وحمل ككسن حقيبته الطبية بعد أن أضاف إلى ما فهيا بضع شطائر، وزجاجة خمر (جن).

وكان من الطبيعي أن يتقدم هونر لأنه هو الدليل، وكان كل ما يهمه، وهو يتولى القيادة، أن يعرف ككس من انتفاخ جيبه الخلفي أن معه مسدسا، ولم يكن هناك خطر من أن يصاب هونر بطلقة في ظهره ما دامت اللؤلؤة في حوزة ككسن.

وكان في وسعهما في الساعة الأولى من الرحلة أن يسمعا الجرس يدق، ثم لم يلبث أن تضاءل رنينه بالتدريج، وازدادت كثافة الغابة، وامتدت

النباتات المتسلقة على الممر الضيق، فغطت منه مسافات طويلة، وكثيراً ما كانا يضطران إلى الإلتفاف في طريقهما حول جذوع الأشجار العظيمة المتساقطة، ويتخذان طريقهما بحذر بين المستنقعات، وكانت سحب من البعوض تعذبهما.

وقال ككسن مغضبا: «لقد قلت أنها ستة أميال، ولكني أراهن أننا قد سرنا أكثر من ذلك القدر حتى الآن».

فصحح هونر هذه العبارة بقوله: «لقد اجتزنا أقل من ميلين، إصغ، هل تسمع ذلك الجرس؟».

وتصادف أن كانت الريح تهب بشدة من الجنوب، فكانا يسمعان من وقت إلى آخر رنيناً ضئيلاً هو رنين الجرس المقبل من ناحية النخلة ذات الجرس.

وقال هونر وهو يكشف عن أسنانه: «لا يمكن أن يضل الإنسان الطريق ولو حاول ذلك، إذ ليس عليه إلا ن يظل سائراً في اتجاه هذا الجرس، فيصل بسهولة إلى متجري رأسا».

وواصلا السير حتى لحا الأمواج تتكسر على الشاطيء الشمالي، ووجدا عنده بقايا متعفنة من مزرعة مهجورة ممتدة على لسان في البحر، ولم يكن فيها ما يدل على الحياة سوى قليل من طيور البحر.

وسأل ككسن، وهو قلق: «وأين القارب؟».

«لم يصل قبل غروب الشمس يا ديف، ولندخل المنزل الآن لنستريح»

ودخلا المنزل القديم، وأزالا نسيج العنكبوت المتراكم فيه، وتقدما إلى منضدة خشنة، وأخرج ككسن زجاجة من الخمر، ووجد هونر كوبين مكسورين، فأزال الغبار عنهما وملأهما خمراً.

وبعد أن شربا، خرج هونر متظاهراً بأنه يبحث عن القارب، ثم انتزع مسدسه من جيبه الخلفي من غير أن يلتفت إلى الأفق، ووضعه في فتحة قميصه الأمامية، حيث يستطيع اختطافه اختطافاً أكثر دقة وسرعة مما لو بقى في جيبه الخلفي.

وبدأ ككسن في الوقت نفسه يشعر بما يحيط به من مخاطر، ولم يكن يعجزه أن يلاحظ الانتفاخ المريب في عجز هونر، وبدا الأمر كله يتكشف له عن مكيدة مدبرة، ولم يكن ككسن نفسه مسلحاً، إذا لم يسبق له أن أطلق النار.

وبدأ وقتئذ يبحث عن وسيلة يدافع بها عن نفسه إذا هاجمه هونر؛ ولاحت له فكرة جاءته من الحقيبة الطبية، فأخذ منها زجاجة من حامض النيتريك، وكان قد وضعها حيث هي ليؤثر في أسرة كندي برائحتها، وصب ككسن الحامض في كوب الخمر الذي أمامه. وكان ككسن يداعب الكوب، كأنه يفعل ذلك بين الجرعات، حين دخل هونر وجلس أمامه. وقال هونر وهو يرفع الكأس بيساره ويخرج المسدس من قميص بيمينه: «الخير كله». وظل المسدس في يده لحظة تحجبه المنضدة عن ككسن.

ثم أظهر هونر المسدس فجأة بحيث يراه زميله. فلما أطلق النار ألقى ككسن ما في الكأس في عيني هونر، وأصابت رصاصة قلب ككسن،

واستعل في عيني هونر في الوقت نفسه لهيب من نار عامية سائلة.

ولطم هونر عينيه بيديه، وأحس بوقع الألم ووخزه في كل عصب من أعصاب رأسه، وسقط المسدس من يده على الأرض، وشعر كأنا سيوفا متوهجة تحرق تلافيف مخه. وجلس حيث هو مدة طويلة ويداه معقودتان بشدة لى عينيه، وقال في نفسه قالة اليأس:

«إن الخمر لا تزيد العينين إلا حدة، وهي لا تصيبك بالعمى قط»، وكان واثقا من أنه سيفتح عينيه ويبصر في دقائق قليلة، وعرف أن ككسن قد مات، فقد سمع سقوط الرجل على الأرض، ولم يصدر منه ذلك الحين حتى مجرد الأنين، وظن أنه لن تمضي إلا لحظة حتى يستطيع أخذ اللؤلؤة إلى متجره، ويقسم أنه لم يغادره.

إلا أن الألم الفظيع لم يقل بل ازداد شدة، وكان ما حول عينيه من اللحم يحترق، وما رفع عنهما يديه كان النهار قد أصبح ليلاً، وصرخ هونر إذ أصبح كفيف البصر. وكاد يجن من شدة الفزع لقد كانت هذه الخمرة اللعينة أشبه بالحامض حرمته بصره، فصرخ مرة ثانية وقد جُن من الخوف، ترى هل يقيده العمى في مكان الجريمة؟ وظل يقول لنفسه في يأس إن هذا لن يكون، وإن الألم الممض لن يلبث أن يزول، وإنه سيبصر.

ومع ذلك مرت به ساعات من العذاب طويلة، وظل العالم أمام هونر فضاء ضخماً أسود.

وأخيرا تحسس طريقه حول المنضدة حتى وجد جثة ككسن وأخذ يبحث بأصابعه حتى لمس اللؤلؤة فأخذها، ثم سار يتحسس طريقه إلى

الباب بيديه الممدودتين إلى الأمام، وسقط وهو يترنح ولكنه أحس بأشعة الشمس وسمع الأمواج تتكسر على الشاطيء غير أنه عجز عن رؤية شيء، وتملكه الرعب، فكيف يجد الطعام أو الشراب بعد أن فقد عينيه؟

وعرف أنه لن يستطيع أن يتتبع الشاطيء ليسلك طريقه إلى إحدى القريتين، لأن شاطيء يولوهو الشمالي لم يكن يستطاع السير فيه على القدمين، فقد كانت هناك صخور مرتفعة في معظم جهاته تضربها أمواج البحر، وكانت هناك مستنقعات خادعة حول خلجان صغيرة، وعرف أن الفرصة الوحيدة أمامه هي أن يعبر الجزيرة من الطريق الذي جاء منه.

ولذلك اتجه بظهره إلى أصوات البحر، وأخذ يسير ببطء إلى الداخل، لعله يستطيع أن يجد الطريق الذي سار فيه مع ككسن، ولكنه أخفق في ذلك، إلا أنه عثر على ينبوع مياه عذبة عند شجرة مانجو ووطأ بقدميه فاكهة ناضجة.

وكان ألم عينيه لا يزال يعذبه، فرقد بجانب ينبوع المياه ساعات حتى عرف من حشرات الغابة أن الوقت ليل، ثم عضه البعوض بقسوة حتى قام يتعثر في مشيته، ويصيح ويصرخ ويلعن وهو عائد إلى المنزل.وسقط في داخله فوق جثة ككسن ورقد بجانبها يئن من الألم حتى الصباح.

وفي هذا العذاب الأليم حاول هونر أن يتحسس طريقه ولكنه لم يفلح، وكان رعد العواصف الاستوائية يقصف في أذنيه، وكانت الأمطار الغزيرة أشبه بضرب السياط الشديد، ومزقت الأشواك لحمه، وكانت الحراج تقف دائما في سبيله، ولكنه مع ذلك حاول من وقت إلى آخر أن يتجه جنوباً مخترقاً الجزيرة.

وكثيراً ما كان يسقط فوق النباتات المتسلقة، وينقلب على رأسه في طين المستنقعات النتن، ولكنه لم يسر قط مسافة لا يسمع فيها ضربات الأمواج على الساحل الشمالي، وكان يعود على الدوام إلى المنزل المتهدم ليحتمي فيه، واضطر أن يسحب جثة الرجل الميت ويلقيها بين الأعشاب.

ثم أصابته الحمى ورقد عاجزاً مدة أسبوعين يلعن العالم الذي منع عنه الضوء. ولم يكن يعدم السماء أبدا فقد كان يجيئه من الأمطار، واتخذ غذاءه من عدد لا يحصى من محار حيوان البحر على الشاطئ ومن الثمار الناضجة تحت أشجار المانجو.

وأخيراً خفت حدة الحمى وأصبحت آلام عينيه المبرحة محتملة، فتحسس طريقه إلى خارج الدار، وكان ضعفه يدعو للرثاء، ولكن تفكيره كان متزنا، وعرف الآن ما يجب عليه عمله لينقذ نفسه، فكان لا بد أن يكافح متجها نحو الجنوب متغلبا على كل العقبات حتى يصل إلى وسط الجزيرة، وهنا يستطيع أن يستعين بالريح فيسمع رنين الجرس ويهتدي به سواء السبيل.

وبدأ رحلته، ولم يلبث أن وجد نفسه يتعثر في تيه من جذوع الأشجار، والأعشاب الشوكية تمزق خدوده، ولكنه واصل السير بقوة المستيئس، وكان يزحف في بعض الأحيان، ويسترح فترات طويلة مستدلا على الطريق بأصوات البحر خلفه دون غيرها، ولما أخذت هذه الأصوات في التضاؤل، عرف أنه يتقدم إلى داخل الجزيرة. ولما أنهكه التعب حتى لم يستطع مواصلة السير نام ساعات ثم سار في طريقه كأنه آلة تتحرك.

وهبت بعد أيام رياح قوية من الجنوب، وسمع رنين الجرس الضئيل، فابتهج بذلك الصوت، وزال عنه كل شك وارتباك، فكان هذا الرنين بعد كل هذا الكفاح أشبه بدعوة إلى الجنة.

* * *

ورسا يخت جميل طويل في الماء الرقراق في خليج هونر، وجاء القارب الساحلى الملحق باليخت إلى الشاطي يقوده ملاحان في ملابس أنيقه.

وبعد قليل كان في المنزل المسقف بالكلأ تحت النخلة ذات الجرس ثلاثة أشخاص ينتظرون على أحر من الجمر. وكان رتشرد كندي راقداً على الفراش، وقلبه يدق دقات سريعة، وكات إيلا واقفة إلى جانبه تنظر بعين القلق إلى رجل طويل القامة أشيب الشعر، عليه حلة بيضاء أخذ يقول لها: «إنها حالة تثير أعظم اهتمام، وتستحق أن يرحل إليها الإنسان رحلة طويلة ليعالجها».

وهمست إيلا قائلا: «وهل يبصر؟».

فأجابها الدكتور ستاينماير «لست أعرف أن هناك ما يحول دون ذلك، لقد كانت إصابته مجرد إصابة خارجية، إنها ندبة في القرنية يمكن أن يستعيد صاحبها بصره إذا وضع له بديل منها».

«وهل فعلت مثل هذا يادكتور؟»

«إن الذي فعلته هو أني قطعت غشاء القرنية وطعمتها بغشاء قرنية أرنب، وقد أجريت هذه العملية في فينا ونجحت».

ونظر الدكتور ستاينماير إلى ساعته، ولم يكن الوقت قد حان لإزالة الضمادات.

وقالت إيلا بحنان: «ولكنك لم تخبرني بعد لم جئت إلى هنا».

فابتسم ستاينماير وقال: «وهل كان في وسعي أن أفعل غير هذا؟ لقد أصبحت سمعتي الفنية في خطر حين أخبر ربان الباخرة ناركوسا ربان يختي في إحدى الموانى أنني حضرت هنا لمعالجة مريض، فلم يكن يسعني بعد ذلك إلا أن أحضر.

فقالت إيلا وعيناها مغرورقتان بالدموع «لقد كان حضورك هذا فضلا منك وكرما»، فربت ستاينماير على يدها وقال: «إن عملي لا يستحق الشكر يا عزيزتي، فقد كنت أجوب البحار في عطلة، ولذلك كان من السهل على أن أحضر إلى هنا أو إلى أي مكان آخر – والان فلننظر إلى النتيجة.

وأزال الضمادات بلطف، عن عينى رتشرد كندي، وتطلع كندي في عالم قليل النور بدا له فيه أن ملكا من السماء يحوم حوله. نعم، لقد كانت أجمل ما كان يتصور، وامتدت ذراعاه.

– «إيلا!».

– «رتشرد، هل تراني؟»

وانحنت إيلا حتى مس خدها المبلل بالدموع خده.

–«نعم يمكن أن أراك يا عزيزتي».

وكان للجرس فوقهما رنين موسيقى بهيج، وكادت دهشتها أن تكون أقوى مما تطيقه، فارتمت بين ذراعيه وهي تبكي حتى رفعها ستاينماير برفق وهو يقول: «يجب ألا نثير أعصابه، أرجوك».

فقالت إيلا: «نحن شاكرون من أعماق قلوبنا، ولكن من واجبنا أن ندفع الأتعاب، ونحن فقراء، فليس لدينا شيء، ولقد كانت لدينا وقتا ما لؤلؤة ثمينة ولكنها فقدت الآن.

فقال: ستاينماير محتجا، وقد تهدج صوته قليلا: «لا تهتم باللؤلؤة، فإن موهبة البصر يا ابنتي أثمن من كل لآلىء البحر».

فأعادت إيلا قولها بإصرار: «ولكن لابد أن ندفع لك شيئا».

وبينما كانت تتحدث دق الجرس دقة ثانية، واتجه ستاينماير ببصره نحو الصوت، ونظر نظرة تمثلت فيها حدة الذهن والمثل العليا مما وقال: «إن أبيت إلا أن تعطيني شيئا، فإن في إمكانك أن تعطيني – تذكارا لهذه المغامرة العجيبة – ذلك الحرس، فإنه يستحق أن أحتفظ به في مكتبي لأعرضه على غيري من الأطباء إن لم يصدقوني. أما زوجك، وقد أصبح في إمكانه أن يبصر، فإنه لم يعد في حاجة إلى الجرس».

وصاحت إيلا مبتهجة: «نعم الجرس بطبيعة الحال، وخلعت نعلها وجرت إلى خارج الدار وأخذت تتسلق الشجرة الطويلة المنحنية».

وكان هونر وهو في الغابة، لا يزال يسمع الجرس من بعيد، وقد قضى ساعات في آلام مبرحة متجهاً نحوه.

ثم انقطع عنه الصوت فجأة، وكان هذا عجيباً لأن الرياح كانت لا تزال تهب، فانتظر وأرهف أذنيه، ولكنه اضطرب حين لم يسمع شيئا، وكان قد سمع رنين الجرس قبل أن يصل إلى هذا المكان بقليل، ولذلك أعتقد أن سيره في المرحلة الأخيرة لابد أن يكون في اتجاه خاطى.

فغير طريقه وأخذ يكافح متجهاً إلى الجهة المضادة لطريقه الأول، واستراح فترة كان فيها قلقاً مضطرباَ ثم واصل السير، ولكن الجرس لم يدق وظل يتحسس طريقه في داخل الغابة التي لم ترحمه. وكان يسقط ثم زحف ويسأل لم لايدق الجرس، ويزداد في كل ساعة تمر به إعياؤه وضعفه واضطرابه.

وهبت الرياح، ولكن الصوت الفضي المنبعث من النخلة ذات الجرس لم يعد يدعوه.

مخلب القرد

د. و.جيكبز

كان الليل بارداً رطباً في خارج الدار، ولكن الستائر كانت مدلاة، ونار المدفأة مشتعلة في حجرة الجلوس الصغيرة في فيلا (لابير نوم). وكان الوالد والولد يلعبان الشطرنج، وكان الأول يضع ملكه في مآزق حرجة لا ضرورة لها، مما أثار تعليقات السيدة ذات الشعر الأبيض التي كانت تعمل بالابرة بجانب المدفأة.

وقال المستر هوبت بعد أن لاحظ بعد فوات الوقت غلطة خطيرة أراد وهو باش الوجه أن يمنع ابنه من ملاحظتها: «أنصت إلى هبوب الرياح».

فأجاب الولد في عبوس وهو يجيل بصره في لوحة الشطرنج: «إنني منصت – ملك».

وقال الوالد ويده متزنة على اللوحة: «لست أعتقد أنه سيحضر الليلة» وقال الولد: «مات الملك».

وصاح مستر هويت بعنف فجائي غير متوقع!

–هذا أسوأ مكان يمكن أن يعيش فيه الإنسان خارج المنزل، فإن الإنسان لا يستطيع أن يجد من بين الأماكن الحيوانية القذرة المنعزلة مكاناً

يعيش فيه أسوأ من هذا المكان. إن الطريق عبارة عن حمأة من الطين وسيل من المياه، ولا أعرف فيم يفكر الناس، ولعلهم يعتقدون أن الأمر لا يعنيهم ما داموا قد أجروا منزلين لا أكثر.

وقالت زوجته وهي تريد أن تهدأه: «لا تشغل بالك يا عزيزى فربما كسبت الجولة الثانية».

ونظر المستر هويت نظرة حادة في وقت استطاع فيه أن يشاهد نظرة بين الأم وابنها فيها دلالة على أنهما يدركان حقيقة الأمر، ووقفت الكلمات عند شفتيه، وضحك ضحكة سافرة أخفاها بلحيته الرقيقة الشمطاء.

وقال (هربرت هوبت) حينما سمع قرقعة الباب الخارجي ووقع أقدام ثقيلة في اتجاه الباب: «ها هو ذا».

ونهض الشيخ بسرعة يتجلى فيها كرم الضيافة، وأدخل القادم الجديد، وكان رجلاً طويل القامة عريض الكتفين، لفحت الشمس وجه، وقال وهو يقدمه: «الباشجاويش موريس».

وحينئذ صافح الباشجاويش الحاضرين واتخذ له مقعداً بجوار المدفأة، ونظر نظرة الرضا إلى مضيفه، وقد أخرج الويسكي والكؤوس، ووضع غلاية نحاسبة صغيرة على النار.

ولمعت عيناه بعد الكأس الثالثة وبدأ يتحدث. وأثار الزائر القادم من جهات بعيدة اهتمام الأسرة الصغيرة، وبخاصة حين اعتدل في جلسته وتحدث عن المناظر الموحشة، والأعمال الجريئة، والحروب، والأوبئة الفتاكة، والشعوب الغريبة.

وأشار المستر هويت إلى زوجته وابنه وقال: «لقد قضى فيها إحدى وعشرين سنة، وكان يشتغل في المخزن حينما سافر، والآن انظر إليه».

وقالت المسز هويت في أدب: «يظهر أنه لم يصب بأضرار كثيرة».

فأجابها الشيخ: «أود أن أذهب إلى الهند بنفسي لأقوم بجولة قصيرة فيها».

فهز الباشجاويش رأسه وقال: «خير لك أن تبقى حيث أنت»، ثم وضع كأسه الفارغة وتنهد تهدأ رفيقًا.

فقال الشيخ: «أود أن أشاهد تلك المعابد القديمة، وفقراء الهنود، والمشعوذين. وما الذي شرعت تحدثني عنه المرة السابقة يا موريس عن مخلب قرد أو ما شابه ذلك؟»

فأجابه الجندى بسرعة: «لا شيء، أو على الأقل لاشيء يستحق أن تسمعه».

وقالت المسز هويت مستطلعة: «مخلب قرد؟»

فأجاب الباشجاويش: «إنه شيء مما يمكن أن نسميه سحرا»

واتجه نحوه الثلاثة بشغف، ووضع الزائر كأسه الفارغة على شفتيه وهو شارد الفكر، ثم أعادها إلى موضعها، ثم ملأها له مضيفه.

ثم قال الباشچاويش وهو يبحث عن شيء في جيبه: «إنا إذا نظرنا إليه لوجدنا أنه مخلب عادي صغير جف حتى أصبح كأنه جثة محنطة».

وأخرج شيئاً من جيبه وأظهره أمامهم، فتراجعت المسز هويت وهي مقطبة الوجه، ولكن ابنها أخذه وفحص عنه ليتعرفه، ثم أخذه المستر

هويت من ابنه، وبعد أن بحثه بنفسه ووضعه على المنضدة قال: «وأي شيء يمتاز به من غيره؟»

فأجاب الباشجاويش: «إن فيه رقية عملها أحد فقراء الهند، وهو رجل صالح جداً، وقد أراد أن يظهر أن الأقدار تتحكم في مصير الناس، وأن الذين يتدخلون فيما قدر لهم تصيبهم المتاعب، وقد وضع فيه رقية بفضلها يستطيع كل واحد من ثلاثة أشخاص مختلفين أن يحقق لنفسه ثلاث رغبات.

وكان له وهو يتحدث أثر في سامعيه شعروا معه أن ضحكهم الذي ينطوي على شيء من الاستخفاف في غير موضعه.

وقال هربرت هويت مبنهجاً: «ولماذا لا تتمنى ثلاث أمنيات ياسيدى؟»

فنظر إليه الجندي نظر الكهول إلى الشبان الذين لم تحنكهم التجارب، ثم قال بهدوء بعد أن شحب وجهه الذي لفحته الشمس: «لقد فعلت».

فسأل المستر هويت: «وهل تحققت فعلاً رغباتك الثلاث؟»

فأجاب الباشجاويش: «لقد تحققت فعلاً»، واصطدمت الكأس بأسنانه القوية.

وقالت السيدة العجوز بإصرار: «وهل تحققت رغبات لأي شخص آخر؟»

«لقد تحققت رغبات الرجل الأول، ولا أعرف الأولى والثانية منها، ولكن رغبته الثالثة كانت أن يموت، وهذه هي الطريقة التي حصلت بها على المخلب».

وكانت لهجته جديه بعثت الصمت في نفوس الجماعة.

وقال الشيخ آخر الأمر: «إذا كانت قد تحققت رغباتك الثلاث فقد أصبح عديم النفع لك يا موريس، فلماذا تحتفظ به؟»

فهز الجندي القديم رأسه ثم قال على مهل: «ربما كان هذا أفضل، فحسبنا ما سببه حتى الآن من أضرار، ولقد فكرت في بيعه فعلاً، ولكني لا أظن أنني سأبيعه. ثم إن الناس لن يشتروه، فإنهم يظنون أنه مجرد قصة خيالية، وحتى أولئك الذين يعتقدون أن له شيئاً من الأهمية، يريدون أن يجربوه أولاً ثم دفعوا ثمنه فيما بعد».

ونظر إليه الشيخ باهتمام ثم قال: «وإذا كانت لك ثلاث رغبات أخرى فهل تتحقق؟»

فقال الآخر وهو يفكر: «لا أدري».

ثم أخذ المخلب وأمسك به بين الإبهام والسبابة ثم ألقاه فجأة في النار، وحينئذ صرخ هويت صرخة ضعيفة وانحنى وأخرجه منها.

وقال الجندي برزانة: «الأفضل لك أن تتركه يحترق .. وقال الآخر: «إن لم تكن لك رغبة فيه يا موريس فهاته»، وقال صديقه في عناد: «لن أعطيك إياه، وقد ألقيته في النار، وإذا احتفظت به فلا تلمني على ما قد يحدث، ألقه في النار كما يفعل الرجل العاقل»

فهز الآخر رأسه، وقلب ملكه الجديد تقليباً دقيقاً عن كثب ثم سأله: «وكيف تستفيد منه؟».

فقال الباشجاويش: «ارفعه في يدك اليمني واذكر رغبتك بصوت عال، ولكني أحذرك من العواقب»

وقالت المسز هويت بعد أن نهضت وأخذت تعد المائدة للعشاء: «إنها أشبه بقصص ألف ليلة، ألا تظن أن في مقدورك أن تطلب أن يكون لي أربعة أزواج من الأيدي؟»

وأخرج زوجها الطلسم من جيبه، واستغرق ثلاثتهم جميعاً في الضحك حينما شاهدوا ما ارتسم على وجه الباشجاويش من إمارات الرعب، ثم أمسك بزراعه.

وقال له في جد ورزانة: «إذا كان لك أن تطلب شيئاً، فلتطلب شيئا معقولاً».

وأعاده المستر هويت إلى جيبه، ودعا صديقه لتناول العشاء، ونسي الجميع الطلسم بعض النسيان أثناء الطعام، ثم جلس الثلاثة بعدئذ يستمعون إلى الجزء الآخر من مغامرات الجندي في الهند.

ولما إن انقفل الباب خلف الضيف بعد أن خرج في الوقت الذي يمكنه من أن يلحق آخر قطار، قال هربرت: «إذا لم تكن قصته عن مخلب القرد أكثر صدقاً من القصص التي رواها، فإننا لن نستفيد منه كثير».

وسألته المسز هويت وهي تنظر إلى زوجها عن كثب: «وهل أعطيته شيئاً ثمناً للطلاسم؟»

فأجابها: «لم أعطه إلا شيئاً تافهاً، ولم يكن راغباً في أخذه، ولكني

اضطررته إلى ذلك اضطراراً، وأخذ يغريني بأن أتخلص منه».

فقال هربرت باستهزاء: «سنكون أغنياء وعظماء وسعداء، اطلب أن تكون إمبراطوراً يا والدي، فإنك لن تكون بعدئذ تحت سيطرة زوجتك».

قالها واندفع حول المائدة ومن ورائه مسز هويت مغضبة ومسلحة بوسادة في يدها.

وأخرج المستر هويت المخلب من جيبه، ونظر إليه بارتياب، ثم قال ببطء: «لاأعرف ما أتمناه، وهذا هو الواقع، ويخيل إلى أنني أملك كل ما احتاجه».

فقال هربرت ويده على كتفه: «لو أنك فرغت من أداء ثمن المنزل لكنت جد سعيد، أليس كذلك؟ حسناً، اطلب مائتي جنيه، وحسبك هذا»

وابتسم والده خجلاً من سرعة انقياده، وأمسك بالطلسم وتجلى على وجه ابنه وقار أفسدته بعض الشيء إشارة من أمه، وأخذ يوقع بعض نغمات مؤثرة على أوتار البيان.

وقال الشيخ بصوت واضح: «أرغب في الحصول على مائتي جنيه».

وحدثت رجة خفيفة في البيان كانت كأنها تحية لهذه الألفاظ، وصحبتها صرخة مروعة من الشيخ، فأسرع إليه ابنه وزوجته.

وصاح وهو ينظر نظرة اشمئزاز إلى الشيء الملقي على الأرض: «لقد تحرك، لقد التوى في يدي كالثعبان حين أعلنت رغبتي».

وقال ابنه وهو يأخذه من الأرض ويضعه على الخوان: «إني لا أرى النقود وأراهنك أني أن أراها قط».

وقالت زوجته وهي تنظر إليه في قلق: «وما من شك في أن ما قلته كان وهماً منك يا والدي».

فهز رأسه وقال. «ومع ذلك فإنه لا يهمني، لم يحدث ضرر ما، ولكنه سبب لي صدمة».

ثم عادوا إلى الجلوس بجوار المدفأة حتى انتهى الرجلان من التدخين.

وكان هبوب الريح في خارج الدار أشد من المعتاد، واضطرب الشيخ في فزع حين سمع صوتاً قوياً من باب في الطابق الأعلى، وخيم على الثلاثة صمت ممض غير مألوف واستمر الصمت حتى انسحب الزوجان الكبيران تخدعهما ليناما.

وقال هربرت حين هم بالانصراف: «أتوقع أن تجد المبلغ مربوطاً في كيس كبير في وسط فراشك، وشيئاً مخيفاً جالساً فوق الصوان يلاحظك وأنت تضع الكسب الحرام في جيبك».

وجلس بمفرده في الظلام، يحدق في النيران التي أخذت تخمد، ويرى فيها وجوها، وكان الوجه الأخير مخيفاً وأشبه بوجه القرود، حملق فيه مندهشاً، واتضح الوجه وضوحاً جمله يضحك ضحكة قصيرة مضطربة وهو يبحث عن كوب على المنضدة به قليل من الماء ليلقبه على هذا الوجه، وأمسك بيده مخلب القرد فارتعش، ومسح يده بردائه، وآوي إلى فراشه.

وأخذ يسخر من مخاوفه في صباح اليوم التالى حينما كانت أشعة الشمس البراقة تقع على مائدة الإفطار، وتغمرها بهجة كانوا قد تعودوها كل يوم في هذه الغرفة، ولكنها كانت تنقصها في الليلة الماضية. وكان المخلب الضامر القذر ملقى على منضدة جانبية بإهمال يدل على عدم الاعتقاد في نفعه.

وقالت المسز هويت: «لعل كل الجنود القدماء سواء، وهل يليق بنا أن نصغي لمثل هذا الهراء؟ وكيف يمكن أن تحقق الرغبات في هذه الأيام؟ وإذا أمكن أن تتحقق فكيف تسبب مائتا جنيه ضررا لك يا أبت؟».

فقال هربرت وهو يجز على أسنانه: «قد تسقط على رأسه من السماء».

فأجابه والده قائلاً: «لقد قال موريس إن هذه الأشياء حدثت بطريقة طبيعية، تستطيع أن تقول منها إذا شئت إنها حدثت اتفاقا»

فقال هربرت حينها وهو يهم بمغادرة المائدة: «حسنا، لا تنفق كل النقود قبل أن أعود إليك، فإنني أخشى أن تحولك إلى رجل حقير بخيل فنضطر إلى أن نبرأ نحن منك»

فضحكت أمه وتبعته إلى الباب أثناء سيره في الطريق، ولا عادت إلى المائدة أخذت تمزح وتضحك من سذاجة زوجها وسرعة تصديقه. ولكن هذا لم يمنعها أن تسرع إلى الباب حينما طرقه عامل البريد، ولم يمنعها أيضاً أن تشير بشيء، من الحيرة إلى هذيان الجنود المتقاعدين المغرمين باحتساء الخمر حين وجدت أن عامل البريد لم يأت لها إلا ببيان من حساب الخياط.

وقالت حين جلسوا لتناول الطعام: «أظن أن هربرت سيجد مجالاً لملاحظاته الفكهة حين يعود إلى المنزل».

فقال المستر هويت: «أعتقد ذلك، ولكني أقسم أن الشيء تحرك في يدي».

فقالت المسز هويت وهي تريد أن تهدئ من روعه: «لقد كنت تظن ذلك»

فأجابها المستر هويت: «ولكني أؤكد لك أن هذا لم يكن ظناً، لقد كنت... ماذا حدث؟.

ولم تجب زوجته بشيء فقد كانت تراقب حركات غريبة لرجل في الخارج، كان ينظر إلى المنزل متردداً، وبدا عليه أنه يحاول أن يعتزم الدخول فيه، وارتبط الرجل في عقلها بالمائتي جنيه، فبدا لها أن هذا الرجل الغريب حسن الزي، وأن على رأسه قبعة من الحرير لامعة، وتردد ثلاث مرات عند الباب الخارجي، ثم واصل سيره، ووقف في المرة الرابعة ويده على الباب، ثم ذهب تردده وفتحه واخترق الممر، ووضعت مسز هويت في الوقت ذاته يديها خلفها، وأسرعت محل رباط ميدعتها، ووضعت هذا الجزء النافع من ملبسها تحت وسادة كرسيها.

وأدخلت الرجل الغريب الذي لم يكن يبدو مستريح النفس إلى الحجرة ونظر إليها خلسة، وأصغى في ذهول إلى اعتذار السيدة عن منظر الغرفة، وعن سترة زوجها التي اعتاد أن يحتفظ بها ليلبسها في الحديقة، ثم أنصتت إليه ليبدأ حديثه، ولكنه ظل صامتًا صمتًا عجيبًا في أول الأمر.

ثم قال أخيراً: «لقد طلب إلي»، ثم انحنى والتقط قطعة من القطن من

سرواله، وواصل حديثه قائلاً: «لقد حضرت من عند مو ومجنز».

فارتاعت السيدة، وسألته وهي لا تستطيع التنفس: «وهل حدث شيء؟ هل أصاب هربرت سوء؟ ماذا حدث؟ ماذا حدث؟

وتدخل زوجها في الحديث وقال: «أماه! أماه! إجلسي ولا تتسرعي في استخلاص النتائج». ثم نظر إلى الرجل نظرة الجزع، وخاطبه قائلاً: «إني واثق يا سيدي من أنك لم تأت بأنباء سيئة».

فبدأ الزائر حديثه بقوله: «إني آسف».

فسألته الأم بلهفة: «هل أصيب؟».

فانحنى الزائر دليل الموافقة، ثم قال في سكون: «لقد أصيب إصابة شديدة ولكنه لا يشعر بأي ألم».

وقالت السيدة وقد أمسكت كلتا يديها بالأخرى: «شكراً لله! شكراً لله على ذلك! شكراً!»

ثم قطعت الحديث فجأة حين لاح لها ما ينطوي عليه هذا التأكيد من مأساة أليمة، ورأت في وجه الزائر، وقد حوله عنها، ما أكد لها مخاوفها تأكيداً مروعاً، ثم حبست أنفاسها، والتفتت إلى زوجها الأقل منها ذكاء، ووضعت يدها المرتعشة على يده، وساد المكان صمت عميق.

وأخيرا قال الزائر بصوت خافت: «لقد أمسكت به الآلات»

فردد المستر هويت قوله في ذهول: «أمسكت به الآلات، نعم»، ثم جلس ينظر من خلال النافذة إلى غير شيء.

وأخذ بيد زوجته بين يديه، وضغط عليها كما اعتاد أن يفعل أيام خطبتها من أربعين سنة تقريبًا.

ثم التفت إلى الزائر في لطف وقال: لقد كان الابن الوحيد الذي بقي لنا، إن هذا لا يحتمل».

وسعل الزائر ونهض قائماً وسار بطء نحو النافذة.

ثم قال من غير أن يلتفت إليهم: طلبت إلى الشركة أن اعبر عن إخلاصها لكما وعطفها عليكما في مصابكما الأليم، وأرجو أن تفهما أنني لست إلا موظفًا في خدمة الشركة، وأن كل ما أفعله إنما هو تنفيذ أوامرها.

ولم يرد عليه أحد، وابيض وجه المرأة العجوز، وحملقت بعينيها، وخفتت أنفاسها فلم تكد تسمع، وبدت على وجه الرجل مظاهر من الذهول تثير الأسى.

ثم واصل الزائر حديثه قائلاً: «لقد طلب إلى أن أقول إن شركة مو ومجنز لا تتحمل أية تبعة، ولا تعترف بأي التزام من جانبها ولكنها ترغب تقديراً منها لخدمات ابنكما أن تقدم تعويضا لكما».

وحينئذ أسقط المستر هوايت يد زوجته، ثم نهض على قدميه ونظر إلى الزائر نظرة فزع، وخرجت من شفتيه الجافتين عبارة «كم؟ »

فكانت الإجابة: «مائتي جنيه»

فابتسم الشيخ ابتسامة صغيرة من غير أن يدرك صراخ زوجته، ومد يده كأنه فاقد البصر، وسقط على الأرض فاقد الإدراك.

ودفن الشيخ وزوجه فقيدهما في المقبرة الضخمة على مسافة ميلين أو نحوها، وعادا إلى منزل الخيالات والسكون، وتم كل شيء بسرعة بلغت حداً لا يكاد ان يشعران معه ما حدث لها، وبقيا في انتظار، كأنهما يتوقعان حدوث شيء يخفف عنهما هذا العبء الذي لا يحتمله قلبان بلغا من الكبر ما بلغاه.

ولكن مرت الأيام وحل مكان الآمال تسليم بإرادة الله، هو تسليم الشيوخ اليائسين، وكانا في بعض الأحيان لا يكاد أن يتبادلان كلمة واحدة، لأنه لم يبق لديهما الآن ما يتحدثان عنه، وطالت أيامهما حتى منتهاها.

واستيقظ الشيخ فجأة بعد أسبوع من ذلك الوقت ومد يده فوجد نفسه وحيداً، وكانت الحجرة مظلمة، وسمع صوت بكاء مكبوت يأتي من النافذة، فرفع نفسه من الفراش وأنصت.

ثم قال بعطف: «تعالى، وإلا أصابك البرد».

فأجابت المرأة العجوز: «إنه أشد برداً على ولدي، وبكت من جديد».

وسكنت أصوات انتحابها بعد أن وصلت إلى أذنيه، وكان الفراش دفيئاً، وقد غلب النعاس على عينيه، فغفا إغفاءة أيقظه منها وهو فزع صراخ زوجته.

فقد كانت تصرخ بشدة: «المخلب! مخلب القرد!» نهض فزعاً مشدوهاً وقال: «أين هو؟ ماذا حدث؟

ومشت نحوه في الحجرة تتعثر، ثم قالت بهدوء: «إنني أريده، لعلك لم تتلفه؟»

فأجاب في دهشة: «إنه في حجرة الجلوس، لماذا تطلبينه؟» فبكت وضحكت في وقت واحد، ثم انحنت نحوه وقبلت خده، ثم قالت وهي منفعلة: «إنني لم أفكر فيه إلا الآن، ولا أدري لم لم أفكر فيه من قبل؟ ولماذا لم تفكر أنت فيه؟»

فسألها: «في أي شيء أفكر؟»

فأجابت بسرعة: «في الرغبتين الأخيرتين، فقد تحققت واحدة لا أكثر»

فسألها بقسوة: «ألم يكن فيها ما يكفي؟»

فصاحت صيحة الظافر: «لا، ستحقق رغبة أخرى، فانزل وأحضره بسرعة واطلب أن يعود ولدنا إلى الحياة»

وجلس الرجل في فراشه، ورمي بأغطيته عن أعضائه المرتجفة ثم صاح صيحة المرتاع: «يا إلهي، لقد جنت!»

ولكنها قالت وهي تلهث: «أحضره! أحضره بسرعة، وتمن آه، وا ولداه! وا ولداه!»

وأشعل زوجها عودا من الثقاب وأوقد شمعة، ثم قال بقلق: «عودي إلى فراشك، فإنك لا تدرين ما تقولين».

فقالت المرأة العجوز وهي محمومة: «لقد تحققت رغبتنا الأولى، فلم لا تتحقق الرغبة الثانية؟»

فقال الرجل وهو يتلعثم: «إنه مجرد توافق في الحوادث».

فصاحت الزوجة وهي تنتفض من شدة الانفعال: «اذهب وأحضره وتمن».

ونظر إليها الشيخ وقال بصوت مرتجف مضطرب: «لقد مات من عشرة أيام، ثم إنه، لا أريد أن أقول غير هذا، ولكني لم أكن أعرف شخصيته إلا من ملابسه، وإذا كان منظره وقتئذ قد بلغ من البشاعة درجة لا تطيقين معها أن تنظري إليه، فكيف تكون حاله الآن؟»

ولكن المرأة صاحت قائلة: «أعده»، وجذبته نحو الباب ثم قالت: «هل تظن أنني أخاف الطفل الذي ربيته؟»

فنزل في الظلام وتحسس طريقه إلى غرفة الجلوس ثم إلى رف الموقد، وكان الطلسم هناك، وتملكه الخوف من أن الأمنية التي لم ينطق بها بعد، قد تعيد إليه ابنه قبل أن يغادر الحجرة، وحبس أنفاسه حينما وجد أنه ضل طريقه إلى الباب، وتحسس طريقه حول المنضدة وقد بردت جبهته من العرق، وسار بجوار الحائط حتى وجد نفسه في الممر الضيق والطلسم المشئوم في يده.

وحتى وجه زوجته بدا كأنه تغير حينما دخل الحجرة، فقد ابيض وبدت عليه مظاهر انتظار ما سيكون، وظهر بصورة غير طبيعية، وقد داخله منها الخوف.

ونادته بصوت قوي: «تمن»! فقال: «إنها سخافة وخبث». فأعادت زوجته قولها: «تمن». فرفع يده وقال: «أتمنى أن يعود ابني إلى الحياة مرة ثانية».

وسقط الطلسم على الأرض، ونظر إليه نظرة الخائف، ثم ارتمى مرتجفا على كرسي، أما المرأة العجوز فقد سارت إلى النافذة وعيناها تتقدا، ورفعت الستار.

وجلس حتى ارتجف من البرد، وكان ينظر أحيانا إلى شبح المرأة العجوز التي تطل من النافذة، وكان نور الشمعة التي أصبحت منخفضة عن مستوى حافة الشمعدان، باقي خيالات على السقف والجدران، حتى انطفأ بعد أن خفق خفقة أكثر من خفقاته السابقة؛ وزحف الشيخ مرة ثانية إلى فراشه وقد سرى في نفسه إحساس بالاطمئنان إلى خيبة الرقية لا يستطيع التعبير عنه، ثم جاءت العجوز إلى جانبه بعد دقيقة أو دقيقتين من ذلك الوقت.

ولم يتحدث أحد منهما للآخر، ولكنهما جلسا يصغيان إلى دقات الساعة، وسمع صرير أحد المقاعد، وجرى فأر على الحائط من غير أن يسمع لجريه صوت. وكانت الظلمة مقبضة للصدر، وبعد أن رقد الرجل بعض الوقت يستجمع كل ما لديه من شجاعة أخذ علبة الثقاب، وأشعل عودا منها ونزل على السلم ليبحث عن شمعة.

ولكن عود الثقاب انطفأ عند أسفل السلم، فوقف ليشعل عودا غيره، وسمع في الوقت ذاته طرقا خافتا هادئا على الباب الأمامي لا يكاد يسمع.

وسقطت عيدان الثقاب من يده وتبعثرت في الممر، فوقف جامدا لا يستطيع حراكا، وقد حبس أنفاسه حتى تكرر الطرق، ثم عاد مسرعا، وأغلق الباب خلفه، وسمعت في البيت طرقة ثالثة.

فصاحت المرأة العجوز وهي تحملق بعينيها: «ما هذا؟»

فأجاب الشيخ بنبرات مضطربة: «إنه فأر، مر بي على السلم»

وجلست زوجته في فراشها مصغية، وسمعت طرقة قوية تردد صداها في المنزل.

فصاحت قائلة: «إنه هربرت! إنه هربرت».

وجرت إلى الباب ولكن زوجها سبقها وأمسكها من ذراعها بقوة.

ثم همس بصوت خشن: «ماذا تعتزمين عمله؟»

فصاحت بطريقة آلية وهي تحاول أن تتخلص منه: «إنه ولدى، إنه هربرت! لقد نسيت أنه كان على بعد ميلين مني، لماذا تمسك بي، دعني، لابد أن أفتح الباب».

فصاح الشيخ وهو يرتعد فرقا: «بالله لا تدعيه يدخله»

فصاحت وهي جاهد للتخلص منه: «وهل تخاف ابنك، دعني اذهب، إني قادمة يا هربرت، إنني قادمة».

وسمعت طرقة أخرى وأخرى، ولوت المرأة العجوز ذراعها فجأة فأفلتت منه وخرجت تجري من الحجرة. واقتفي زوجها أثرها إلى أعلى السلم وناداها متوسلا وهي تسرع إلى الطابق الأسفل. وسمع رنين السلسلة الحديدية والمزلاج الأسفل وهو ينسحب ببطء وقوة، ثم سمع بعدئذ صوت المرأة العجوز تنادي بصوت مجهد.

ونادته بصوت عال: «المزلاج، انزل، لا أستطيع الوصول إليه». ولكن

زوجها كان يحبو على يديه وركبتيه ليبحث عن المخلب، وكان يتمنى أن يجده قبل أن يدخل الشيء الذي كان في الخارج. واهتز الباب تحت وابل من الطرقات، وسمع صرير كرسي كانت زوجته تضعه في الممر خلف الباب، وسمع صوت المزلاج وهو ينسحب ببطء، ووجد في اللحظة ذاتها مخلب القرد، فأخذه ونطق وهو يلهث بأمنيته الأخيرة.

وانقطع الطرق فجأة وصداه لا يزال يتردد في المنزل، وهبت رياح عاصفة باردة قوية على السلم، وسمع صرير الكرسي وهو ينسحب والباب وهو يفتح، واستمد الرجل الشجاعة من صياح زوجته وعويل البؤس والخيبة، فجرى إلى جانبها ثم إلى الباب. وكان مصباح الشارع يخفق أمامه ويضيء طريقه ساكنا مهجورا.

تغيير المعاملة

و. و. جيكبز

قال الحارس الليلي: «نعم، لقد ركبت البحر في بعض أيامي تحت إمرة بعض الربابنة النشيطين، ولكن الربان الذي سأروي قصته، ما كان يجب أن يوثق به، فيؤمر على سفينة مسافرة دون أن تكون معه أمه. لقد كان للكثيرين من الربابنة الذين عملت تحت إمرتهم شذوذا، ولكن هذا الربان كان أسوأ من عملت تحت إمرته.

لقد انقضت على ذلك بضع سنوات، فقد أبحرت على سفينة (جون إليوت)، وهي أبطأ سفينة رحلت عليها، ولم أكن في حالة ولا استعداد تمكنايي من أن أعرف ما كنت أعمله.

ولم يمض على عملي بها يومان حتى اكتشفت هواياته مما تسمعته من ملاحظات قليلة نطق بها مساعده الثاني، وقد قام مسرعا من مائدة الغداء ليفضي بها إلينا، فقال لمساعده الأول: «إني لا أبالي بالمناشير والسكاكين المعلقة على جدران الغرفة، أما إذا كان للشخص يد بشرية إلى جانب صفحة طعامه يدسها والناس يأكلون فإن هذا مما لا يطيقه إنسان».

وقال المساعد الأول وكان قد سافر بالسفينة من قبل: «ليس هذا الشيء الذي يستحق الذكر، إنه مغرم بالطب إلى حد الجنون، وقد كادت

تحدث فتنة بين بحارة السفينة من قبل، وذلك حين أراد التحقيق في مقتل رجل سقط من ساريتها، فأراد أن يعرف سبب موت هذا المسكين».

فقال المساعد الثاني بعنف شديد: «إنني أسمي هذا طعاما غير صحي، لقد أعطاني مرة قرصا صغيرا وقت تناول طعام الإفطار، وكان في حجم الكرة، فامتنعت ساعتئذ عن الطعام».

وسرعان ما عرفت هواية الربان العجيبة في السفينة كلها بطبيعة الحال، ولكني لم أفكر فيها كثيرا حتى شاهدت ذات يوم دانيل دنيس الشيخ يقرأ وهو جالس على خزانة، وكان من وقت إلى آخر يطوي الكتاب ويتطلع إلى أعلى ويغمض عينيه، ويحرك شفتيه كما تفعل الدجاجة وهي تشرب، ثم ينظر في الكتاب من جديد.

فقلت له: «ما هذا يا دان، ما الخبر؟ لعلك تذاكر دروسك في هذه السن؟»

فقال دان برقة: «نعم، هذا ما أفعله، فهل لك أن تراجع ما أقوله، إنه هذا الموضوع الخاص بمرض القلب».

وناولني الكتاب الذي كان يحتوي وصفا لكافة أنواع الأمراض وأشار بطرف عينه إلي.

وقال: «إنه كتاب مستعمل اشتريته قديما من إحدى المكتبات» ثم أغمض عينيه وأعاد تلاوة القطعة تلاوة أدهشتني، وبدوت أنا شخصا غريبا وأنا أستمع إليه، ولما أتم تلاوة الموضوع قال: «هذا ما أشعر به ولا أكاد أجد فيه من القوة ما أستطيع معها الذهاب إلى الفراش، فأعني يا بيل وادع إلى الطبيب»

ثم رأيت تحايله، ولكني لم أشأ أن أجازف بشيء، واقتصرت على أن أخبرت الطاهي عرضا بأن الشيخ دان يبدو عليه بعض الشذوذ، ثم عدت وحاولت أن أستعير الكتاب، لأني على الدوام مغرم بالقراءة، وادعى الشيخ أن مرضه يحول بينه وبين سماع ما قلته، وقبل أن أستطيع أخذه منه جاء الريان مسرعا يحمل حقيبة في يده.

وبادره الريان بقوله: «ماذا أصابك أيها الرجل؟ ماذا أصابك؟»

«إنني بخير يا سيدي، إلا أنه يغمي على قليلا من وقت إلى آخر».

فقال الريان وهو يجس نبضه: «حدثني بالضبط ما تشعر به»

ثم أسمعه دان العجوز القطعة التي كان قد حفظها من الكتاب، والريان في أثناء ذلك يهز رأسه ويبدو عليه الجد والوقار، وقال له: «وكم قضيت من الزمن على هذه الحال؟» .

«أربع سنوات أو خمسا يا سيدى، ولعل الأمر ليس فيه خطورة. هل فيه يا سيدى؟».

فقال الريان وهو يضع شيئا صغيرا كالبوق على صدره ويستمع:

«عليك أن ترقد ساكنا كل السكون، لأنني أخشى أن يكون هناك مرض خطر في هذا المكان. إن (التشخيص) ينذر بشر مستطير».

فقال دان وهو يحملق فيه: «ماذا تقول يا سيدي التص...؟» فقال الريان: «التشخيص» أو إني أظن على الأقل أن هذه هي الكلمة التي قالها «يجب أن ترقد في سكون تام وسأذهب لأمزج لك الدواء، وأخبر الطاهي

ليعد لك مرق لحم البقر القوي».

ولم يكد الربان يغادر المكان حتى كان (كورنيش هرى)، وهو شاب ضخم الجسم يبلغ طول قامته ست أقدام وبوصتين، قد ذهب إلى دان وقال له: «أعطني هذا الكتاب».

فأجابه دان بقوله: «إليك عني، لا تضايقني، لقد سمعت الربان يقول كيف أن التشخيص ينذر بالشر»

فأمسك به هري وقال: «أعربي الكتاب، وإلا فأنني سأضربك ضربا عنيفا أولا ثم أخبر الربان عن تحايلك ثانيا. إني أعتقد أني مصاب بقليل من السل، وسواء أكان ذلك أم لم يكن فإنني سأنظر في الأمر»

وجذب الكتاب بعنف من الرجل العجوز وبدأ يدرس، وكان فيه وصف لأمراض بلغت من الكثرة حدا أغراه على أن يفكر في أن يختار لنفسه مرضا آخر غير السل، ولكنه صمم على هذا أخيرا، وأخذ يسعل بطريقة ضايقتنا طول الليل وفي أثناء اليوم الثاني، ولما حضر الربان في هذا اليوم ليرى دان كان صوته خافتا لا يستطيع هو سماعه وقال: الربان: «إنه سعال فظيع أيها الرجل»

فأجاب هرى باستخفاف: «لا شيء في الأمر، فقد مضى علي وأنا على هذه الحال بضعة أشهر كان السعال فيها ينقطع ثم يعود، وأعتقد أن هذا يرجع إلى أنني أعرق كثيرا بالليل يا سيدي».

فقال الربان: «ماذا؟ هل تعرق بالليل؟»

فأجابه هرى: «بشكل فظيع، حتى أنك تستطيع أن تعصر ملابسي عصرا، وأظن أن هذا مفيد لصحتي، أليس كذلك يا سيدي؟»

فذهب الربان إليه ووضع البوق على جسمه وقال له: «اخلع قميصك، وخذ نفسا طويلا، ولا تسعل»

فقال هرى: «لا أستطيع هذا يا سيدي، فإني سأسعل، ويكاد السعال أن يمزق جسمي إربا»

فأجابه الربان بعد أن رفع البوق وهز رأسه: «أذهب إلى فراشك في الحال، ومن حسن حظك أيها الشاب أنك في رعاية أيد ماهرة، وأعتقد أني بعنايتي أستطيع أن أعيد إليك صحتك، وستجد الدواء يادان؟»

فقال دان: «إنه جميل جدا يا سيدي، إنه مهدئ لدرجة عجيبة، ولقد نمت بعد تناوله كما ينام الطفل الحديث الولادة»

وقال الربان: «سأرسل إليك كمية أخرى منه، واحذرا أن تغادرا الفراش، لا أنت ولا هو»

فأجاب الاثنان بصوت خافت: «سمعا وطاعة، يا سيدي» وذهب الربان بعد أن أوصانا بأن نحذر من أن نحدث أي صوت وظننا كلنا في مبدأ الأمر أنها دعابة لطيفة، ولكن المظهر الذي تظاهر به هذان الشخصان ضايقنا أشد المضايقة، فقد ظلا نائمين طول النهار، ولذلك بقيا مستيقظين طول الليل بطبيعة الحال، وكانا يتناديان في الحجرة، يسأل كل منهما عن صحة الآخر، ويطردان النوم من أعيننا، كذلك كانا يتبادلان مرق لحم البقر القوى والعصير المختر.

وكان دان يطلب من هرى شيئا من النبيذ البرتغالي يزيد به دمه، ولكن هرى كان يرد عليه بأنه لم يصنع من الدم في ذلك اليوم ما يكفيه، وأنه سيشرب متمنيا حسن الصحة لدان العجوز (وتشخيصه) ويطقطق بشفتيه حتى كدنا نحن من سماع طقطقته.

وبعد انقضاء يومين على تظاهرهما بالمرض، أخذ زملاؤهما يتحدثون في أمرهما بعد أن جنوا من رائحة المرق وغيره من الطعام، وقالوا إنهم معتزمون أن يمرضوا هم أيضا. واهتاج المريضان اهتياجا مروعا.

وقال هرى «إنكم ستفسدون الأمر علينا جميعا، ولا تعرفون ما تشكون منه بغير الكتاب».

وقال أحد الرجال: «أتظن أن من الخير أن نقوم بعملكم فوق قيامنا بعملنا، لقد جاءت نوبتنا، لقد حان وقت شفائكما»

فقال هرى: «نشفي، نشقى؟ لماذا أيها الأشخاص الجهلاء السخفاء إننا لن نشفي أبدا، إن من يشكو علتنا لن يشفي، ويجب أن تعرفوا ذلك.

فقال أحدهم: «سيسمع الربان بهذا الأمر»

فقال هري: «إذا فعلت فإنني سأفعل بك فعلة لا تنهمك معها كل خمور العالم وعصيره الخثر، ثم ألا تعتقد أن الربان يعرف حالتنا؟».

وقبل أن يجيب الرجل كان الربان نفسه قد حضر ومعه مساعده الأول، وكان على وجهه نظرة جعلت هرى يسعل أعمق سعال اصطنعه في حياته.

فالتفت الربان إلى مساعده وقال: «إن ما يحتاجان إليه حقيقة هو العناية بتمريضهما»

فقال المساعد الأول: «أرجو أن تسمح لي أنا بتمريضهما، عشر دقائق لا أكثر، ولو فعلت لأوقفتهما على أقدامهما وجعلتهما فوق ذلك يعدوان لينقذا حياتهما»

فأجاب الربان: «امسك لسانك يا سيدي، إن ما تقوله خال من العطف، ثم إن فيه إهانة لي، فهل تظن أنني درست الطب كل هذه السنين الطوال، ثم لا أعرف متى يكون الإنسان مريضا؟»

فزمجر المساعد الأول وتمتم بضع كلمات، ثم ذهب إلى ظهر السفينة وأخذ الربان يفحصهما مرة ثانية. وقال إنهما قد صبرا صبرا عجيبا على الرقاد في الفراش هذه المدة الطويلة، وأمر بأن يلفا في أغطية الفراش، وينقلا إلى سطح السفينة، حتى يستفيدا من الهواء النقي.

وجلسا هناك، يتنفسان الهواء النقي وينظران إلى المساعد الأول بطرف أعينهما، وكانا إذا طلبا شيئا من أسفل السفينة وجب علينا من أن نأتي لهما به، فلما حان الوقت لنقلهما إلى الفراش مرة ثانية، صممنا كلنا أن نمرض نحن أيضا.

على أنه لم يمرض منا غير اثنين لا أكثر لأن هرى، ذلك الإنسان القوي الفظ، أقسم أن يفعل بنا فعالا مروعة إن لم نظل في صحة جيدة، وقد بقينا كلنا في صحة إلا هذين الاثنين. وأما أحدهما وهو (ميك رفرتى) فقد أصيب بتورم في الضلوع، وكنت أعرف بنفسي أنه كان مصابا به من خمس عشرة سنة، وأما الثاني فقد أصيب بالشلل. ولم أشاهد قط رجلا

سعيدا مثل الربان وقتئذ، فقد كان يتنقل من أعلى السفينة إلى أسفلها ومعه الأدوية والأدوات طول النهار، وكان يدون ملاحظات عن المرضى في مذكرة ضخمة، ويقرؤها لمساعده الثاني وقت تناول الطعام.

وكنا قد أقمنا في أسفل السفينة من أسبوع، وكنت أنا على ظهرها أقوم ببعض الأعمال حينما جاءني الطاهي ومط وجهه حتى أصبح كأنه كمامة وقال: «مريض آخر، إن المساعد الأول قد جن»

فقلت «جن!».

«نعم، فقد أحضر حوضا كبيرا في المطبخ، وهو يضحك ومزج مياه الغسيل بالحبر والبرفين والزيد والصابون وأشياء أخرى كثيرة تكفي رائحتها لقتل إنسان حتى اضطررت أن أهرب».

فدفعني الفضول وحب الاستطلاع للذهاب إلى المطبخ ونظرت إليه خلسة وشاهدت المساعد كما أخبرني الطاهي، وقد علا الضحك وجهه كله، يصب مادة لزجة سميكة في قنينة من الحجر.

ولما مر به الربان خطا إلى خارج الحجرة وقال له: «كيف حال المرضى المساكين يا سيدي».

فقال الربان وهو ينظر إليه بغضب: «إنهم في حالة سيئة، ولكني أرجو أن تتحسن حالتهم، ويسرني أنك تشعر بعطف عليهم أكثر قليلا من ذي قبل».

فقال المساعد: نعم يا سيدي، إني لم أكن أظن ذلك في مبدأ الأمر،

ولكني أرى الآن أن أولئك الأشخاص مرضى جدا، وأرجو أن تعذرني إذا قلت ذلك، ولكني لا أوافق على طريقتك في علاجهم.

وأعتقد أن الربان كاد أن ينفجر من الغيظ. «علاجي؟ علاجي؟ وماذا تعرف أنت عنه؟». فقال المساعد: «لقد كنت تعالجهم بطريقة خاطئة يا سيدي»

ثم وضع القنينة وقال: «إن معي هنا دواء يشفهم كلهم إذا سمحت لي بتجربته» فقال الربان: «ما أسخف هذا القول! أدواء واحد يشفي كل الأمراض؟ إنها هي القصة القديمة. فما هذا الدواء؟ ومن أين جئت به؟».

فقال المساعد. «لقد جئت بمواده معي في السفينة. وهو دواء عجيب كشفته جدتي، وإذا سمح لي أن أجربه فإني سأشفي هؤلاء الأشخاص المساكين شفاء تاما».

فقال الربان: «هذا كلام لا معنى له!».

فأجاب المساعد وهو يهز كتفيه: «حسن جدا يا سيدي، إنك إذا لم تشأ أن تسمح لي فلن يسمح لي بطبيعة الحال، ولكن مع ذلك أقول لك إنك إن سمحت لي بتجربته فإنني واثق من أني سأشفيهم جميعا في خلال يومين، وهذا عرض طيب».

وظلا يتحدثان طويلا حتى وافق الربان في النهاية، ونزل مع المساعد إلى المرضى وأخبرهم أنه لابد لهم من تناول الدواء الجديد مدة يومين لمجرد إثبات خطأ المساعد.

فقال هرى وهو يحملق ويشم رائحة الدواء بعد أن نزع المساعد غطاء القنينة: «فليجربه دان الشيخ المسكين أولا فقد ساءت حاله جدا مذ غادرته».

وقال دان: «إن صحة هرى أسوأ من صحتي يا سيدي، وهو لا يقول هذا إلا لرقة قلبه».

وقال المساعد وهو يملأ ملعقة شاي بالدواء: «لا يهمنا من يبدأ بتناوله. إن معنا منه ما يكفي الجميع، والآن يا هرى ...»

فقال الربان: «خذها».

وأخذها هرى وأحدث من الجلبة ما تظن معه أنه ابتلع كرة قدم، ولصق الدواء بجوانب فمه كلها، وأخذ يأن أنينا يثير الشفقة، حتى أن باقي المرضى كادت تجشأ نفوسهم قبل أن يأتيهم الدواء.

وقبل أن ينتهي الثلاثة الآخرون من تناول الدواء كان المنظر أشبه بتمثيلية هزلية صامتة، وأقفل المساعد القنينة وجلس على خزانة، وحاولوا هم أن ينظفوا أفواههم من هذه التمة التي أعطوها، وسأل الربان دان: «كيف حالك؟ فقال: «إني أموت».

وقال هرى: «وهذا شأني أنا أيضا، فإنني أعتقد أن المساعد قد سمنا».

ونظر الربان إلى مساعده وهو مقطب الوجه وهز رأسه ببطء فقال مساعده: «إنه على ما يرام: وهذا شأن الجرعات الاثنتي عشرة الأولى أو نحوها»

فقال دان العجوز بصوت يبدو كأنه آت من بعيد: «الاثنتي عشرة جرعة أو نحوها!»

فقال المساعد وهو يخرج قصبته ويشعلها: «لابد من تناول الدواء مرة كل عشرين دقيقة».

وأخذ الرجال الأربعة كلهم يئنون.

فقال الربان: «إني لا أسمح بذلك، إن حياة الناس لا يضحى بها في سبيل التجارب».

فقال المساعد غاضبا أشد الغضب: «إنها ليست تجربة، فهو دواء قديم من أدوية الأسرة».

وقال الربان بشدة: «حسنا، لن يأخذوا أكثر مما أخذوا».

وقال المساعد: «استمع إلي، وسأدفع لك عشرين جنيها إذا قتلت أحدا من هؤلاء الرجال، سأدفعها لك بشرف».

فقال الربان وهو يفكر: «فلتكن خمسة وعشرين».

– «حسنا، خمسة وعشرين، لا أستطيع أن أكون أعدل من هذا، أليس كذلك؟ ولقد حان وقت جرعة أخرى الآن»

وأعطى كلا منهم ملء ملعقة بعد أن غادرهم الربان، وكاد ينفجر باقي الملاحين من المرضى من فرط السرور، ولم يسمح لهم بشيء يصلح طعم أفواههم، مدعيا بأن هذا لا يتيح الفرصة للاستفادة من الدواء.

وبدأ اليأس يستولي على المرضى بعد الجرعة الخامسة. وامتنعوا عن

التظاهر بالمرض، حينما علموا أن عليهم أن يوقظوا من نومهم في الليل كل خمس وعشرين دقيقة لتناول الدواء. وأعلن دان العجوز أنه قد شعر بنشوة لطيفة تسري في جسمه وتبعث فيه قوة.

وقال هرى إنه شعر أنه رجل جديد، ووافق الجميع على أنه دواء عجيب، وذهب الرجل المشلول بعد الجرعة السادسة إلى ظهر السفينة، وتسلق الجبال إلى نهاية السارية، كما تفعل القطط.

وهناك جلس عدة ساعات يبصق، وأقسم ليطيرن مخ من يقطع عليه وحدته. وبعد أن مضت عليه وهو على هذه الحال برهة وجيزة ذهب إليه ميك وانضم إليه. وإذا كانت أذنا المساعد الأول لم تحترقا من هول ما سمعت من أقوال هذين المريضين البائسين عنه لكان حقا عليهما أن تحترقا.

وفي اليوم الثاني كان البحارة جميعا يقومون بعملهم على خير وجه، وعرف الربان بطبيعة الحال الطريقة التي عومل بها، ولكنه لم يشر إليها قط، أعني أنه لم يشر إليها بالأقوال. غير أنه إذا حاول إنسان أن يفرض على أربعة رجال أن يقوموا بعمل ثمانية، وأن يضربهم إذا لم يقوموا به، فإنه لا يصعب عليه أن يعرف موضع الألم من نفوسهم.

البيضة البلورية

هـ. ج. ولز

كان يقوم بالقرب من (سفن ديلز) حتى السنة الماضية حانوت صغير قبيح المنظر، على واجهته لافتة كتبت عليها بحروف صفراء باهتة من أثر العوامل الجوية (س. كيف، العالم في التاريخ الطبيعي وتاجر العاديات) وكانت واجهة الحانوت تشتمل على بعض أنياب الفيلة ومجموعة غير كاملة من قطع الشطرنج، وخرز وأسلحة، ومجموعة من العيون، وجمجمتي نمرين، وجمجمة بشرية، وبضعة قرود محشوة أكلتها العثة (وأحدها ممسك مصباح) وخزانة من الطراز القديم، وبيضة نعامة، أو ما شابهها، علاها الغبار، وأدوات لصيد السمك، وحوض سمك فارغ قذر عجيب مصنوع من الزجاج. وكان هناك أيضا في الوقت الذي تبدأ فيه هذه القصة كتلة من البلور مصنوعة على شكل بيضة جيدة الصقل، وكان خارج مدخل الدكان رجلان يتطلعان إلى هذه الكتلة البلورية، أحدهما من رجال الدين، طويل القامة نحيف الجسم، أما الآخر فكان شابا أسود اللحية قاتم البشرة يرتدي ملابس غير زاهية، وكان الشاب القائم اللون يتحدث ويشير إشارات تدل على اهتمامه، ويبدو عليه حرصه على أن يشتري رفيقه هذه السلعة.

وبينما هما واقفان جاء المستر كيف إلى الحانوت، وكانت لحيته لا تزال

تهتز وقد علق بها بعض ما تناوله مع الشاي من الخبز والزبد. ولما شاهد الرجلين وموضوع اهتمامها، تغيرت ملامحه ونظر إليهما بخبث من فوق كتفيه، وأسرع فأغلق الباب. وكان هو رجلا كبير السن، ضئيل الجسم، شاحب الوجه، له عينان زرقاوان غريبتان تدمعان، وكان شعره رماديا قذرا، وكان يرتدي سترة زرقاء رثة، وقبعة حريرية بالية عتيقة، وكان في قدميه خف بلى مؤخراه، وأخذ يراقب الرجلين وهما يتحادثان، ودفع القسيس يده إلى عمق عظيم في جيب سرواله، وأخرج منه حفنة من النقود، وأخذ يفحصها، ويكشف عن أسنانه وهو يبتسم ابتسامة لطيفة. أما المستر كيف فقد بدا أكثر اكتئابا حين وصلا الحانوت.

وسأل القسيس دون أن يقدم أية تحية عن ثمن البيضة البلورية، فنظر المستر كيف باضطراب إلى الباب المؤدي إلى حجرة الضيوف وقال: «خمسة جنيهات» فاعترض القسيس بأن الثمن مرتفع، ووجه حديثه إلى زميله وإلى المستر كيف على السواء. وكان الثمن في الواقع أكثر مما قدره المستر كيف حينما وضع البيضة في حانوته، وتلت ذلك مساومة حاولها الطرفان، وخطا المستر كيف نحو باب الحانوت وفتحه ثم قال: «إن الثمن الذي أطلبه هو خمسة جنيهات» كأنه أراد أن يتخلص من متاعب مناقشات لا طائل تحتها. وبينما هو في ذلك إذ ظهر الجزء الأعلى من وجه امرأة فوق ستار الزجاج العلوي من الباب المؤدي إلى حجرة الضيوف، وأخذت تحملق في المشتريين، تريد أن تعرف حقيقة أمرها.

وقال المستر كيف بصوت مرتجف: «إن الثمن الذي أطلبه هو خمسة جنيهات». وكان الشاب القاتم البشرة قد اكتفي إلى ذلك الوقت بأن

يشهد ما يحدث ويراقب المستر كيف مراقبة دقيقة، ثم تكلم الآن قائلا: «أعطه خمسة جنيهات». فنظر إليه القس يريد أن يعرف هل هو جاد فيما يقول. ولما نظر إلى وجه المستر كيف مرة أخرى وجده قد امتقع. فقال القس: «إنه مبلغ كبير». ثم وضع يده في جيبه وأخذ يعد النقود الصغيرة، فلم يجد معه أكثر من ثلاثين شلنا، فطلب بعض المال من صديقه، ويلوح أن صلته به كانت وثيقة. وأتاح هذا المستر كيف فرصة يجمع فيها شتات أفكاره، وأخذ يشرح لهما وهو مضطرب أن البلورة لم تكن في واقع الأمر معروضة للبيع، فدهش المشتريان بطبيعة الحال، وسألاه لم لم يفكر في ذلك قبل أن يبدأ في المساومة؛ فارتبك المستر كيف، ولكنه أصر على قوله إن البيضة لم تكن في السوق بعد ظهر اليوم؛ وإنه يرجح أن مشتريا لها قد جاء قبلهما. واعتقد المشتريان أن هذه محاولة منه لرفع الثمن أكثر مما هو، وتظاهرا بمغادرة الحانوت وحينئذ فتح باب غرفة الضيوف وظهرت المرأة.

وكانت غير رقيقة الملامح، بدينة الجسم، أصغر كثيرا من المستر كيف، ولكنها أضخم منه جدا. وكانت ذات وجه محمر، ومشيت متثاقلة وقال: «إن هذه البلورة معروضة للبيع حقا وخمسة جنيهات ثمن طيب لها، ولست أدري ماذا ترمي إليه يا مستر كيف من وراء رفضك ما عرضه عليك السيدان!»

فتضايق المستر كيف من هذا التدخل من جانبها، ونظر إليها بغضب من فوق حافة منظاره، وقال إن من حقه أن يتصرف في شئونه بما يلائمه، دون أن يؤكد هذا الحق فوق ما يجب. وأخذ كل منهما يدلي بحجحه، وأخذ المشتريان يرقبان هذا المنظر باهتمام وبشيء من الطرب، وكانا يمينان المستر

كيف بآرائهما من حين إلى حين. ولما سدت أمام المستر كل السبل، استمسك بقصة مضطربة مستحيلة مؤداها أن بعض الناس قد طلبوا البلورة في صباح ذلك اليوم، وكان اهتياجه وهو يتحدث مؤلما حقا، ولكنه استمسك برأيه استمساكا عجيبا، حتى أنهى الشاب الشرقي هذا الجدال العجيب، فاقترح أن يعودا مرة ثانية في خلال يومين، حتى يتيحا فرصة للباحث المزعوم. وقال القسيس: «وفي هذه الحال أصر على حقنا في الشراء». وأخذت المسز كيف على عاتقها أن تعتذر عن تصرفات زوجها، وكان مما قالته: «إنه يكون أحيانا شاذا بعض الشذوذ».

ولما غادر المشتريان المكان أخذ الزوجان يستعدان لمناقشة هذا الحادث بملء حريتهما من جميع وجوهه، أما الرجل المسكين الضئيل الجسم فقد كان يرتجف من فرط انفعاله، وأخذ يخلط في قصصه، فادعى أولا أن لديه مشتريا، ثم قال بعد ذلك إن البلوره تساوي عشرة جنيهات، ولما سألته زوجته قائله: «ولم إذن طلبت خمسة جنيهات ثمنا لها؟» أجابها بقوله: "عيني أتصرف في شئوني بطريقتي أنا»

وكان يقيم مع المستر كيف ابنة لزوجته وابن لها من رجل آخر، وعاد الجدال في هذا الموضوع وقت العشاء، ولم يكن أحد منهم يحسن الظن بكفايه المستر كيف في الطرق التجارية، واتخذوا من هذا التصرف دليلا على شدة حماقته.

فقال ابن زوجته، وكان شابا مرتخي الأطراف، فظا، في الثامنة عشرة من عمره: «أعتقد أنه قد رفض من قبل أن يبيع هذه البلورة».

وقالت ابنة زوجته، وكانت فتاة في السادسة والعشرين، كثيرة الجدل: «ولكن الجنيهات الخمسة».

وكانت إجابات المستر كيف سخيفة فقد كان كل ما في وسعه أن يتمتم بأقوال ضعيفة مؤداها أنه يعرف شئونه الخاصة أحسن من سائر الناس. واضطر أن يترك عشاءه قبل أن يفرغ منه وأذناه ملهبتان، وعيناه ممتلئتان بالدموع خلف منظاريه، وذهب إلى حانوته في تلك الليلة. وأخذ يسائل نفسه لماذا ترك البلورة في واجهة الحانوت طول هذه المدة؟ ألا ما أسخف هذا العمل! وظل ساعة من الزمان لا يجد له طريقة يتخلص بها من البيع.

وبعد العشاء تزين ابن زوجته وابنتها، وخرجا من الدار وانسحبت زوجته إلى الطابق الأعلى لتقلب مسألة البلورة على جميع وجوهها وهي تتناول السكر والليمون وما إليهما في الماء الساخن. وذهب المستر كيف إلى الحانوت وبقي فيه حتى ساعة متأخرة متظاهرا بإعداد أكوام من الطين والصخر لزراعة بعض النبات، ولكن بقاءه فيه كان لغرض آخر خير لنا أن نشرحه فيما بعد. ولم تجد المسز كيف في اليوم التالي البلوره في مكانها، بل وجدتها قد نقلت خلف بعض الكتب المستعملة، فأعادتها إلى مكان ظاهر، ولم تجادل زوجها في أمرها بعدئذ، لآن آلاما عصبية في رأسها بغضتها في الحديث، أما المستر كيف فقد كان ينفر منه على الدوام. ومر اليوم على غير ما يرام، وكان المستر كيف– إذا صح أن نصفه بشيء–شارد الفكر أكثر من المعتاد، وشديد الانفعال على غير المألوف ونقل بعد الظهر البلورة من النافذة مرة أخرى حين كانت زوجته نائمة كعادتها.

وكان على المستر كيف في اليوم التالي أن يرسل كيسا من كلاب البحر إلي إحدى مدارس المستشفيات، كانت في حاجه إليها لتشريحها. وفي أثناء غيبته عادت مسز كيف تفكر في مسألة البلورة، وتضع الخطط لإنفاق الجنيهات الخمسة. وكانت قد صممت على شراء رداء لها من الحرير الأخضر وعلى القيام برحلة إلى رتشمند حين دخلت الحانوت على أثر طرق على الباب الخارجي. وكان الزبون يركب عربة من عربات البحوث العلمية وقد جاء ليشكو عدم إرسال أنواع معينة من الضفادع، طلبها في اليوم السابق. ولم تكن المسز كيف راضية من هذا الفرع الخاص من أعمال زوجها. وكان الرجل راكب العربة قد أقبل وعليه مظاهر الاعتزاز، وبعد أن تبادل مع المستر كيف بعض عبارات مؤدبة– من ناحيته هو– خرج من الحانوت، ثم اتجهت أنظار المستر كيف بطبيعة الحال إلى واجهته لأن رؤية البلورة كان ضمانا للجنيهات الخمسة ولتحقيق أحلامها. وما كان أعظم دهشها حين لم تجدها، ثم ذهبت تبحث عنها خلف الخزانة الموضوعة على المنضدة حيث وجدتها في اليوم السابق، ولكنها لم تكن هناك أيضا، وبدأت في الحال تبحث عنها في كل مكان في الحانوت.

ولما عاد المستر كيف من عمله المتصل بكلاب البحر في الساعة الثانية بعد الظهر، وجد الحانوت مضطربا بعض الشيء، ووجد زوجته غضبى، ورآها راكعة خلف المنضدة تنبش بين الأشياء المحنطة.

ولما دق الجرس مؤذنا بعودته، أطلت من فوق المنضدة بوجه غاضب شديد الحرارة، واتهمته من فورها بإخفاء البيضة. فسألها المستر كيف: «إخفاء أي شيء؟» فأجابت: «البلورة!»: وحينئذ أظهر المستر كيف

دهشته الشديدة، واندفع نحو واجهة الحانوت وقال: «أليست هنا؟ رحماك اللهم! ماذا حدث لها؟

وفي هذه اللحظة دخل ابن زوجته من الحجرة الداخلية– وكان قد عاد إلى المنزل قبل المستر كيف بدقيقة أو نحوها– وقد أطلق للسانه العنان، فكان يسب ويلعن، وكان الشاب يتدرب على العمل عند بائع للأثاث القديم في آخر الشارع، ولكنه كان يعود ليتناول طعامه في المنزل، وتضايق بطبيعة الحال لأنه لم يجد طعام الغداء معداً له.

ولكنه لما سمع بضياع البلورة نسى أكله، وتحول غضبه من أمه إلى زوجها، وكان رأيهما الأول بطبيعة الحال أنه أخفاها، ولكن المستر كيف أصر على إنكار معرفته بمصيرها، ثم أضطر آخر الأمر إلى اتهام زوجته أولاً ثم ابنها ثانياً بأنهما أخذاها ليبيعاها وحدهما. وعلى أثر ذلك بدأت مناقشة حادة جداً، أثارت أعصاب المستر كيف وأخرت ابنها عن العودة إلى عمله في مؤسسة الأثاث نصف ساعة بعد الظهر، ولجأ المستر كيف إلى الحانوت ليحتمي فيه من زوجته المنفعلة.

واستؤنفت المناقشة في المساء، وكانت أقل حدة وبروح قضائية، بإشراف ابنة زوجته. وتناولوا العشاء وهم غاضبون، وانتهى الطعام بمنظر مؤلم، فقد وجد المستر كيف أن ملاحظاتهم لا تحتمل، فخرج من عندهم، وأقفل الباب خلفه بعنف. أما باقي الأسرة فقد تناقشت في أمره بحرية هيأتها لهم غيبته، ثم فتشت المنزل بدقة من أعلاه إلى أسفله أملا في العثور على البلورة.

وعاد العميلان في اليوم الثاني، فاستقبلتهما المسز كيف وهي تكاد تبكي، وبدا أن أحدا لا يستطيع أن يتصور ما قاسته على يد المستر كيف في عهد زواجها به. ثم قصت قصة مضطربة عن اختفاء البلورة، فتبادل القسيس والشرقي الضحك في صمت، وقالا إنه أمر غريب، ولما رأيا أن المسز كيف معتزمة أن تقص عليهما تاريخ حياتها، وأظهرا أنهما يعتزمان مغادرة الحانوت. وكانت المسز كيف لا تزال متعلقة بالأمل، فسألت القسيس عن عنوانه حتى تخبره إذا استطاعت أن ترغم المستر كيف على الإفضاء بشيء من المعلومات عن البلورة. وأعطاها القسيس عنوانه، ولكن يلوح أنها وضعته فيما بعد في مكان غير الذي يجب أن يوضع فيه، ولم تستطع أن تذكر شيئاً منه.

وبدا في مساء ذلك اليوم أن أسرة كيف قد استنفدت كل ما كان فيها من غضب وانفعال، وخرج المستر كيف بعد الظهر وتمشى وحده في عزلة كئيبة تختلف اختلافاً يسر النفس عن المناقشات الحادة التي جرت في الأيام السابقة، وظل منزل كيف وأسرته بعض الوقت لا يبعث قط على السرور.

والآن فلندخل في صميم الموضوع فنقول: إن المستر كيف كان كاذبا، فقد كان يعرف تمام المعرفة مكان البلورة، إذ كانت في حجرات المستر (جاكوبي ويس) المحاضر المساعد في مستشفى سانت كاترين في شارع وست بورن، وكانت موضوعة على منضدة جانبية ومغطاة بقطعة من المخمل الأسود. والحق أنا قد عرفنا التفاصيل التي بنيت عليها هذه القصة من المستر ويس نفسه، فقد أخذها كيف إلى المستشفى مخبأة في كيس

كلاب البحر، وهناك حث الباحث الشاب على الاحتفاظ بها له. وارتاب المستر ويس قليلا في مبدأ الأمر، وكانت علاقاته بكيف غريبة، إذ كان يميل إلى الشخصيات الشاذة، وكثيرا ما دعا الشيخ للتدخين والشرب في مسكنه ليكشف له عن آرائه المضحكة في الحياة بوجه عام، وعن زوجته بوجه خاص. وكان المستر ويس قد التقى بمسز كيف أيضا في بعض الأوقات حين لم يكن المستر كيف في المنزل ليستقبله، وعرف ما كان يلاقيه المستر كيف من تدخل دائم في شئونه، فلما عرف قصة البلورة وتدبرها تدبرا حكيما، استقر رأيه على حفظها عنده، ووعد المستر كيف أن يوضح له أسباب حبه الخاص للبلورة توضيحا أوفى من ذلك في فرصة أخرى، ولكنه أخبره في وضوح تام بأنه يشاهد فيها مناظر غريبة. ثم زار المستر ويس في مساء ذلك اليوم نفسه.

وروى له قصة معقدة قال فيها إن البلورة قد انتقلت إليه مع غيرها من الأشياء الغريبة في بيع إجباري لبضاعة تاجر تحف. ولم يكن يعرف ما عسى أن تكون قيمتها الحقيقية، فوضع عليها بطاقة، قدر فيها ثمنها بعشرة شلنات، وبقيت عنده وهي مقدرة بهذا الثمن بضعة شهور، وكان مهما إنقاص هذا الرقم حينما كشف فيها شيئا عجيبا.

وكانت صحته في ذلك الوقت معتله، ولابد أن نذكر أنه كان ضعيف الجسم خلال حوادث هذه القصة، وكان يحزنه أشد الحزن إهمال زوجته وابنها لأمره بل سوء معاملتهم إياه بالفعل. وكانت زوجته مغرورة مسرفة فاقدة الإحساس مولعة بالشراب وحدها ولعا مطرد الزيادة. وكانت ابنتها وضيعة تتدخل في كل شيء، وكان ابنها يكرهه كراهية شديدة، ولم يضيع

فرصة يستطيع فيها إظهار هذه الكراهية. وكانت حاجات عمله ترهقه إرهاقا شديدا، ويعتقد المستر ويس نفسه أنه لم يكن بعيدا كل البعد عن الإسراف في الشراب أحيانا. وكان قد بدأ حياته في ظروف ملائمة، وقد تعلم تعليما طيبا، وكان يصاب أحيانا بانقباض الصدر وبالأرق، وكانت هاتان العلتان تلازمانه أسابيع متصلة لا تفارقانه أبدا، وكان يخشى أن يقلق راحة أسرته، فكان إذا ضاقت نفسه بأفكاره ولم يطق صبرا عليها يتسلل من جانب زوجته في سكون وهم على وجهه في المنزل. وقادته المصادفة في الساعة الثالثة من صباح أحد أيام شهر أغسطس إلى حانوته.

ووجد الحانوت هذه المرة حالك الظلام فيما عدا بقمة واحدة شاهد فيها توهجا من الضوء غير مألوف، ولما اقترب منه وجد أنه البيضة البلورة، التي كانت في طرف المعتمدة بالقرب من النافذة. وكان شعاع ضئيل جدا من الضوء ينفذ من ثغرة في مصراعها ويقع على البلورة، وخيل إليه كأن هذا الشعاع يملأ داخل المكان كله ضياء. وخطر للمستر كيف أن هذا لا يتفق مع قوانين البصريات التي عرفها في أيام صباه، فقد كان في مقدوره أن يفهم أن البلورة تكسر الأشعة وأن هذه الأشعة تلتقي في بؤرة في داخلها، ولكن انتشار الضوء على النحو الذي رآه لم يكن يتفق مع ما عرفه من القوانين الطبيعية، فاقترب من البلورة كثيرا وفحص عنها من داخلها ومن خارجها في جميع جهاتها، واستعاد إلى حين قصير تشوفه العلمي الذي تحمله في صباه على أن يختار لنفسه المهنة التي اختارها. وقد دهش حين وجد أن الضوء لم يكن ثابتا، وأنه كان يلتوي داخل البيضة البلورية كأنها كانت كرة مجوفة من بخار مضيء. ووجد فجأة أنه أصبح بين البيضة والشعاع، وأن البلورة قد بقيت مع ذلك

مضيئة، ودهش لذلك أعظم دهشة، فرفعها من موضعها بعيدا عن طريق شعاع الضوء ونقلها إلى أظلم بقعة في الحانوت، فظلت تبرق أربع دقائق أو خمسا، ثم أخذ ضوؤها يخبو ببطء حتى انطفأ، ثم وضعها في الشعاع الرفيع من ضوء النهار فعاد إليها بريقها كما كان أو كاد.

وإلى هذا الحد على الأقل استطاع المستر (ويس) أن يتحقق من قصة المستر كيف العجيبة، فقد وضع تلك البلورة مرارا في أشعة من الضوء لا يزيد قطرها على مليمتر واحد، فلما وضعها في الظلام التام الذي يمكن الوصول إليه بلفها بقطعة من المخمل، بدا له فيها من غير شك ضوء فسفورى ضئيل جدا، وكان هذا الضوء من نوع شاذ غريب لا تراه الأعين كلها بدرجة واحدة، لأن المستر هار بنجر- وسيعرف القارئ العلمي اسمه متصلا بمعهد باستير - لم يستطع أن يشاهد فيها ضوءا على الإطلاق. وكذلك كانت مقدرة المستر ويس على إدراك هذا الضوء أقل كثيرا من مقدرة المستر كيف، وحتى المستر كيف نفسه، كانت تختلف قدرته على مشاهدة هذا الضوء اختلافا عظيما في الظروف المختلفة، فقد كان نظره أكثر ما يكون وضوحا حينما يكون شديد الضعف أو مجهدا أعظم إجهاد.

وقد سحر ضوء البلورة من البداية في المستر كيف سحرا غريبا. وإن امتناعه عن الإفضاء المخلوق من بني الإنسان مشاهداته العجيبة ليكشف عن عزلته النفسية أكثر مما يكشف عنها مجلد من الكتابة المحزنة، ويظهر أنه كان يعيش في جو من الضغائن بلغ حدا يجعل مجرد الاعتراف بسره كافيا لأن يهدده بخطر الحرمان منه. وقد وجد أنه كلما اقترب الفجر وازداد مقدار الضوء المنتشر بدت البلورة وكأنها لا ضوء فيها، وعجز وقتا

ما عن أن يرى أي شيء فيها إلا في أثناء الليل وفي أركان الحانوت المظلمة.

ولكن خطر له أن يستعين بقطعة من المخمل قديمة كان يضمها خلف مجموعة من المعادن عنده، ولما طوى هذه القطعة طيتين ووضعها على رأسه ويديه أمكنه أن يشاهد الحركات الضوئية في داخل البلورة حتى في أثناء النهار. وكان يحذر أشد الحذر أن تطلع زوجته على أمره، فكان لا يقوم بهذا العمل إلا بعد الظهر وهي نائمة في الطابق العلوي، ولا يقوم به إلا خفية تحت المنضدة. وشاهد ذات يوم وهو يقلب البلورة في يده شيئا يبدو ويختفي كأنه وميض. ولكن خيل إليه أن هذا الشيء قد كشف له عن منظر اقليم متسع عريض غريب غير مألوف، ولا قلب البلورة ساعة اختفاء الضوء رأى فعلا هذا المنظر الصغير مرة أخرى.

وليس من الضروري أن نصف كل الخطوات التي خطاها المستر كيف في كشفه من هذه النقطة، لأن ذلك يدعو إلى الملل والسآمة؛ وحسبنا أن نلخص هذا النتيجة باختصار فنقول: لقد وجد أنه إذا نظر إلى البلورة من زاوية مقدارها حوالي ١٣٧ درجة من الأشعة المضيئة، فإنها تكشف عن صورة واضحة لأقليم متسع عجيب. ولم يكن هذا حلما قط، بل كان الأمر الذي يحدثه في عقل الإنسان أنه حقيقة واضحة محددة. وكلما زاد الضوء كان المنظار أكثر تجسمها وأقرب إلى الحقيقة. وكانت الصورة تتحرك، ونقصد بذلك أن بعض الأشياء التي فيها كانت تتحرك، ولكنها تتحرك ببطء حركة منتظمة كما تتحرك الأشياء الحقيقية. وكانت الصورة تغير كل تغير اتجاه الضوء وموضع الرؤية، فكان في الواقع أشبه بالنظر إلى

منظر من مرآة بيضاوية وتقليب المرآة حتى يمكن النظر إلى أجزاء من المنظر مختلفة.

وقد أكد لي المستر ويس أن أقوال المستر كيف كانت مفصلة غاية التفصيل، ولكن يجب أن نذكر أن جميع الجهود التي بذلها المستر ويس لمشاهدة شيء مما في البيضة بمثل هذا الوضوح في وهج البلورة الضئيل قد أخفقت إخفاقا تاما، وكان الفرق بين الأثرين في حالة هذين الرجلين عظيما جدا. وليس من غير المعقول أن ما كان المستر كيف يعتقد أنه منظر حقيقي لم يكن في نظر المستر ويس أكثر من خيال غامض.

وكان المنظر على ما وصفه كيف هو على الدوام منظر سهل متسع، وكان يلوح في كل الأحوال أنه ينظر إليه من ارتفاع شاهق برج أو سارية سفينة. وكانت تحيط بالسهل شرقا وغربا صخور عظيمة ضاربة إلى الحمرة، تذكره بالصخور التي شاهدها في إحدى الصور. ولكن المستر ويس لم يكن في مقدوره أن يعرف حقيقة هذه الصورة، وكانت تلك الصخور تمتد شمالا وجنوبا، وكان في وسعه أن يستدل على الجهات بالنجوم التي كانت ترى في أثناء الليل، وكانت هذه النجوم تبتعد إلى مسافات لا نهاية لها، ثم يخبو ضوؤها وتختفي في الضباب البعيد قبل أن تتلاقي، وكان هو أقرب إلى مجموعة المرتفعات الشرقية منه إلى الغربية، وكانت الشمس وقت نظرته الأولى مشرقة عليها، ثم ظهرت طائفة كبيرة من الصور الهائمة في الفضاء محجب ضوء الشمس فتبدو سوداء وشاحبة إذا نظرت إليها من ناحية ظلالها، وقد عدها المستر كيف طيورا؛ وامتدت من تحتها سلسلة عظيمة من المباني خيل إليه أنه ينظر إليها من عل، وأصبحت غير واضحة حينما

اقتربت من حافة الصورة . وكانت هناك أيضا أشجار غريبة في شكلها ذوات لون أحوي طحلبي ورمادي بديع، وكان يرى فيها أيضا قناة متسعة متلألئة. وطار في فراغ الصورة شيء عظيم براق اللون، غير ن المستر كيف لما شاهد هذه الأشياء أول مرة كان كل ما رآه منها ومضات سريعة؛ فقد اهتزت يداه وتحرك رأسه ولاح له المنظر واختفي، وأصبح غير واضح يغشاه الضباب. ولي في مبدإ الأمر أكبر صعوبة في استعادة الصورة ساعة أن غاب عنه اتجاهها.

وكانت نظرته الثانية الواضحة بعد أسبوع من النظرة الأولى، ولم يستطع أن يشاهد بين النظرتين إلآ لمحات سببت له بعض الضيق، ولكنه انتفع فيها بعض الخبرة. وأظهرت له النظرة امتداد الوادي. وكان النظر في هذه المرة مختلفا أشد الاختلاف عنه في المرة الماضية، ولكنه اعتقد اعتقادا عجيبا، لم تلبث أن حققته ملاحظاته التالية في معظم أجزائه، بأنه كان يشاهد العالم المجيب من نفس البقعة، وإن كان ينظر إليه في اتجاه غير الاتجاه الأول، فقد تراجعت في الصورة الواجهة الطويلة لذلك الفناء الهائل الذي كان يطل على سقفه من قبل، وشاهد السقف ورأى في مقدمة الفناء شرفة هائلة عظيمة الاتساع ذات أعمدة جميلة عظيمة الطول، و تقوم في وسطها على مسافات معينة ساريات ضخمة، ولكنها رشيقة، من فوقها أشياء صغيرة براقة تنعكس عليها أشعة الشمس وقت الغروب. ولم يخطر ببال المستر كيف حقيقة هذه الأشياء الصغيرة إلا فيما بعد حينما كان يصف المنظر المستر ويس. وكانت الشرفة تطل على نباتات يانعة جميلة، وكان من ورائها خميلة من الكلأ ترقد عليها مخلوقات عريضة الجسم في

شكل الخنافس، ولكنها أكبر منها كثيرا. وكان يلي ذلك أيضا طريق متسع مزين بأحجار ضاربة إلى اللون القرنفل، من ورائه متسع عريض من الماء مصقول السطح كالمرآة، تنمو على جوانبه أعشاب كثيفة حمراء، ويخترق الوادي متجها نحو بدايته وموازيا الصخور البعيدة عنه. وظهر كأن الهواء مملوء بأسراب من الطيور العظيمة تروح وتغدو في خطوط منحنية فخمة، وكان على جانبي النهر طائفة كبيرة من المباني الفخمة ذات ألوان جميلة مرصعة بالمعادن البراقة تقوم بين غابة من أشجار الطحلب والحزاز. وشاهد فجأة شيئا يخفق خفقانا متكررا، ولاح كأن وجها، أو بعبارة أصح الجزء الأعلى من وجه، له عينان عظيمتان واسعتان، اقترب من وجهه، وكأنه كان على الجانب الآخر من البلورة. وفزع المستر كيف من رؤية هاتين العينين اللتين كانتا حقيقة واقعة، وأثرت فيه رؤيتهما فرجع برأسه عن البلورة لينظر ما وراءها، وكان منصرفا بكليته إلى مشاهدة الصورة، فدهش حين رأى نفسه في ظلام حانوته الصغير تنبعث منه رائحته المألوفة، وهي مزيج من المثيل والأشياء المتعفنة التالفة. ولما تطلع إلى ما حوله كانت البلورة المتوهجة قد خبا نورها وانطفأ.

هذه هي الآثار العامة التي انطبعت في عقل المستر كيف. والقصة على هذا النحو واضحة وضوحا غريبا ومفصلة تفصيلا يثير الدهشة، وقد تأثر بها خياله تأثرا عجيبا، وبلغت دهشته أقصاها من بداية الأمر، أي من وقت أن لاح الوادي لحواسه برهة قصيرة من الزمن.

ومن ذلك الحين كان يذهب لمزاولة أعماله وهو خامل مشتت الفكر لا يفكر إلا في الوقت الذي يعود فيه لمشاهداته في البلورة. ثم حضر

المشتريان بعد انقضاء بضعة أسابيع على مشاهدته الوادي للمرة الأولى، وحدث ما حدث من انفعال، في نفسه، وتوترت أعصابه عقب الثمن الذي عرضاه عليه، ونجاة البلورة بعد جهد جهيد من أن تباع لها كما قصصنا على القارئ" من قبل.

وقد بقيت المسألة مجرد أعجوبة لدى المستر كيف طالما كانت سرا من أسراره الخاصة، فكان يتسلل إليها خفية ويفحص عنها ويطل فيها كما يطل الطفل في حديقة محظور عليه دخولها. ولكن المستر ويس، وإن كان باحثا علميا حديث السن، كان مع ذلك واضح التفكير، منظم العقل إلى حد كبير؛ فلم تكد البلورة وقصتها تنتقل إليه ويقتنع بعد مشاهدة الإشعاع الفسفوري بعينيه بأن هناك شواهد على صدق رواية المستر كيف، حتى أخذ ينظر في الأمر بطريقة منظمة، وكان المستر كيف أحرص الناس على الذهاب إليه والاستمتاع بمشاهدة أرض العجائب التي رآها، ولذلك كان يذهب كل ليلة من الساعة الثامنة والنصف حتى العاشرة والنصف، بل كان يذهب أيضا بالنهار أحيانا في أثناء غياب مستر ريس، وكان يذهب بعد ظهر أيام الآحاد أيضا، ويدون منذ البداية مذكرات جمة، وكان لطريقته الفضل في إثبات العلاقة بين الاتجاه الذي يدخل منه إلى البلورة الشماع الذي يحدث الصورة، وبين اتجاه الصورة نفسها، وحسن أحوال المشاهدة تحسينا كبيرا بتغطية البلورة في صندوق ذي فتحة صغيرة يدخل منها الضوء المحدث الصورة، فلم يمض إلا زمن وجيز حتى استطاع أن يشاهد الوادي من أي اتجاه يريد أن يشاهده منه.

والآن وقد أنرنا للقارئ السبيل نستطيع أن ندلي بوصف موجز لعالم

المرئيات الذي كان في داخل البلورة. لقد كان المستر كيف يشاهد هذه الأشياء في جميع الأحوال، وكانت الطريقة التي يتبعها على الدوام هي أن يرقب البلورة ويخبر مستر ويس بما يراه. ولما كان المستر ويس من رجال العلم، وقد تعلم طريقة الكتابة في الظلام، فقد كان يكتب مذكرة مختصرة بما يبلغه إليه المستر كيف، فإذا انطفأ نور البلورة وضعت في صندوقها في الوضع الملائم، وسلط عليها النور الكهربائي، ووجه الستر ويس مايريد من الأسئلة، وأشار بما يجب أن يشاهد لإيضاح بعض النقط الصعبة، ولا يمكن أن يكون شيء أبعد عن الخيال وأقرب إلى الأمور المألوفة العادية من هذا العمل.

وكان مما استلفت نظر المستر كيف على الفور هو المخلوقات الشبيهة بالطيور التي شاهدها بكثرة في كل نظراته السابقة. واتضح صدق نظره، وظل وقتا ما يعتقد أنها ربما كانت نوعا من الخفاش، ثم لاحت له فكرة سخيفة، وهي أنها قد تكون ملائكة. وقد كانت رؤوسها مستديرة وشبيهة شبها غريبا برؤوس الإنسان، وكانت عينا إحداها هي التي أفزعته في ملاحظاته في المرة الثانية، وكانت لها أجنحة عريضة فضية اللون خالية من الريش ولكنها براقة لا تكاد تقل لمعانا عن السمك الذي قتل من وقت قريب، وكانت تشبه السمك أيضا في تقلب لونها وتغيره، ولم تكن هذه الأجنحة متصلة بالجسم كما تتصل أجنحة الطيور أو الخفافيش بأجسامها كما يعلم ذلك مستر ويس، بل كانت تعتمد على ضلوع مقوسة تخرج من الجسم. (وإذا قلت إنها كأجنحة الفراش مضافا إليها ضلوع كان ذلك في رأيي أحسن طريقة للتعبير عن مظهرها).

وكان جسمها صغيرا، ولكنها كانت مزودة بمجموعتين من الأعضاء لتمسك بها الأشياء كالمجسات في الحشرات، وكانت تحت الفم مباشرة. واعتقد مستر ويس آخر الأمر أن هذه المخلوقات هي صاحبة المباني العظيمة والحديقة الغناء التي أكسبت الوادي العريض جماله الرائع، وإن كان هذا قد بدا له أمرا لا يقبله العقل. ورأى المستر كيف فيما رأى من الخصائص الغريبة التي تمتاز بها هذه المباني أنها ليست لها أبواب، وأن النوافذ الواسعة المستديرة التي تطل على فضاء فسيح كانت تستخدم لدخول هذه المخلوقات وخروجها. وكانت هذه الملائكة تنزل على محسساتها وتطوى أجنحتها حتى تكاد تشبه العصي ثم تقفز إلى الداخل، ولكن كان من بينها عدد كبير من مخلوقات ذوات أجنحة أصغر من هذه وأشبه بالذباب الكبير والصراصير الطائرة. وكان يرى على الخميلة عددا لا يحصى من الصراصير الأرضية الضخمة الزاهية الألوان التي تنتقل على الأرض جيئة وذهابا، وكان يرى في الطريق المرصوف والشرفات مخلوقات ذوات رؤوس كبيرة شبيهة بالذباب الكبير ذي الأجنحة ولكنها لم تكن لها أجنحة، وكانت تنط باستمرار على أعضاء الحس المشتبكة الشبيهة بالأيدي.

وقد أشرنا من قبل إلى الأشياء البراقة التي كانت على الساريات القائمة على شرفة البناء القريب. وخطر للمستر كيف بعد أن أمعن النظر في أحد هذه الساريات في يوم صاف أكثر من سائر الأيام أن هذا الجسم البراق بلورة شبيهة كل الشبه بالبلورة التي ينظر فيها، وبعد بحث الأمر بدقة أكثر من ذي قبل أيقن أن كل عمود من هذه الأعمدة العشرين التي يتكون منها المنظر الماثل أمامه يحمل فوقه جسما من هذه الأجسام.

وكان واحد من المخلوقات العجيبة يطير إلى أحد هذه الأعمدة ثم يطوي جناحيه ويلوي عددا من محساته حول السارية وينظر إلى البلورة بإمعان محو خمس عشرة دقيقة.

وقد اقتنع الراصدان بعد سلسلة من المشاهدات أجراها بناء على اقتراح مستر ويس أن البلورة التي ينظران فيها - من حيث صلتها بهذا العالم الخيالي - ترتكز بالفعل على قمة آخر سارية من ساريات الشرفة، وأن واحدا من سكان هذا العالم الآخر قد أحدق في وجه مستر كيف مرة واحدة على الأقل حين كان هذا الرجل يقوم مشاهداته في البلورة.

وحسبنا هذا وصفا للحقائق الجوهرية في هذه القصة العجيبة، وإذا لم ننكرها عن آخرها ونقول إنها من نسيج خيال المستروس الخصيب، كان علينا أن نؤمن بواحدة من اثنتين، فإما أن بلورة كيف كانت في عالمين في وقت واحد، وأنها وإن تنقلت في أحدها قد بقيت ثابتة في العالم الآخر، وهذا رأي سخيف لا يصدقه العقل، وإما أن لها صلة عطف عجيبة ببلورة غيرها مشابهة لها في هذا العالم الآخر، بحيث أن ما يشاهد في داخل البلورة الموجودة في هذا العالم يمكن أن يراه في الظروف الملائمة من ينظر في البلورة الثانية في العالم الآخر بالعكس. ولسنا نعرف الآن طريقة يتحقق بها هذا الارتباط بين بلورتين، ولكننا نعرف في الوقت الحاضر ما يكفي لأن ندرك أن هذا ليس مستحيلا، وهذا الرأي القائل أن بين البلورتين صلة تعاطف كان هو الفرض الذي لاح لمستر ويس، ويبدو لي أنا على الأقل أنه رأي محتمل كل الاحتمال.

ولكن أين هذا العالم الآخر؟ وهنا أيضا يلقي ذكاء المستر ويس اليقظ ضوءا سريعا على هذا الموضوع، فإن الجو في ذلك العالم يظلم بسرعة بعد غروب الشمس. نعم إن هنالك فترة من الغسق تظهر فيها النجوم التي نشاهدها على الأرض مرتبة في أبراجها بعينها، فقد تعرف المستر كيف على الدب والثريا والدبران والشعري، ولذلك لابد أن يكون العالم الآخر في مكان ما في المجموعة الشمسية ولا يزيد بعده عن عالمنا على بضع مئات قليلة من ملايين الأميال. واهتدى المستر ويس بهذه المعلومات فتبين له أن السماء في منتصف الليل كانت ذات زرقة قاتمة أكثر من سمائنا حتى في وسط الشتاء وأن الشمس بدت له أصغر قليلا مما هي عندنا. ورأى في السماء قمرين صغيرين يشبهان قمرنا ولكنهما أصغر منه ويختلفان عنه فيما عليهما من علامات. وكان أحدها يتحرك بسرعة يستطيع أن يشاهدها من يرقبه، ولم يكن هذان القمران في وقت من الأوقات مرتفعين في السماء، بل كانا يختفيان حين يرتفعان، أي يخسفان في كل دورة من دوراتهما لقربهما الشديد من كوكبهما الذي يتبعانه.

والحق أن في وسع الإنسان أن يصل من هذا إلى نتيجة محتملة أعظم احتمال، وهي أن المستر كيف حين نظر في هذه البلورة قد أبصر بالفعل كوكب المريخ وسكانه. وإذا كان الأمر كذلك فإن النجم الساطع في سماء هذا المنظر البعيد لم يكن إلا أرضنا نحن المعروفة لنا.

ويلوح أن سكان المريخ – إذا كان من رآهم هم سكان المريخ – قد ظلوا وقتا ما لايعرفون شيئا عن أبحاث المستر كيف في كوكبهم. وكان أحدهم يأتي مرة أو مرتين وينظر إلى شيء ما، ثم يذهب إلى إحدى الساريات

كأن المنظر لم يكن يعجبه، وكان في وسع المستر كيف أثناء ذلك أن يراقب حركات أولئك الخلائق المجنحين من غير أن يقطع عليه هذه المراقبة التفاتهم إليه. وبالرغم من أن تقريره كان غامضا ومقتضبا فإنه مع ذلك يبعث على التفكير. فليتصور الإنسان ما ينطبع في ذهن أحد المراقبين من المريخ من فكرة عن الإنسانية بعد أن يستعد استعدادا شاقا يؤذي عينيه كثيرا، ثم يستطيع بعد ذلك أن يشاهد مدينة لندن من أعلى كنيسة سانت مارتن في فترات لا يزيد طول إحداها على أربع دقائق في كل مرة. ولم يتمكن المستر كيف من أن يعرف هل المريخيون المجنحون هم أنفسهم المريخيون الذين كانوا يقفزون في الطرق المرصوفة والشرفات؟ وهل في وسع هؤلاء أن يكونوا ذوي أجنحة حين يشاؤون؟ وشاهد عدة مرات خلائق سمجة ذات قدمين وشبيهة شبها بعيدا بالقرود، بيضاء اللون، ينفذ من أجسامها الضوء بعض النفاذ، وتتغذى على الأشجار، وقد حدث أن هربت بعضها مرة أمام أهالي المريخ القفازين ذوي الرؤوس المستديرة، وأمسك أحد هؤلاء بإحداها. وتصدرت الرؤية بعد ذلك، ثم اختفت الصورة فجأة وتركت كيف في ظلام دامس يتألم لاختفائها أشد الألم. وظهر مرة أخري شيء كبير اعتقد كيف في مبدأ الأمر أنه حشرة جبارة، وكان يتقدم نحو الطريق بجانب القناة بسرعة عظيمة خارقة للعادة، ولما اقتربت هذه الحشرة من المستر كيف رأى أنها جهاز من معادن براقة ذو تركيب معقد أعظم التعقيد، ولكنه كان قد اختفى عن الأبصار حينما نظر إليه مرة ثانية.

ثم أمل مستر ويس بعد وقت ما أن يستلفت أنظار أهل المريخ، ولما ظهرت عينا واحد منهم العجيبتان مرة أخرى بقرب البلورة صرخ مستر

كيف وقفز مبتعدا عنهما، وأضاء هو وزميله النور على الفور، وأخذا يشيران ببعض الحركات بطريقة توحي بأنهما يحاولان إرسال إشارات؛ فلما أن بحث المستر كيف البلورة مرة أخرى كان أهل المريخ قد اختفوا عن الأنظار.

وجرت هذه المشاهدات التي سبق وصفها في أوائل نوفمبر، ثم شعر مستر كيف أن شكوك أسرته قد قلت فشرع يحمل البلورة معه في شدوه ورواحه حتى يستطيع أن يسلي نفسه إذا واتته الفرص بالنهار أو بالليل بهذا العمل الذي أخذ يصبح بسرعة أهم شيء في حياته.

وازدادت أعمال ويس في ديسمبر لصلته بامتحان قريب، وتأجلت الجلسات على الرغم منه أسبوعا، ولم يشاهد كيف مدة عشرة أيام أو أحد عشر يوما. ولما انتهت أعمال الامتحان تاق لمواصلة هذه البحوث، وذهب إلى سفن ديلز، ولكنه وجد حانوت كيف مغلقا.

فطرق الباب وفتح له ابن الزوجة وكان يرتدي السواد فدعا في الحال مسز كيف فرآها هي أيضا تلبس السواد، فعرف أن كيف قد مات ودفن، ولم يثر هذا لديه كبير دهشة، وكانت الزوجة تذرف الدمع وقد غلظ صوتها قليلا، وكان يبدو عليها أنها مشغولة بأمر مستقبلها، وبتفاصيل الجنازة. ولكن ويس استطاع أخيرا أن يعرف تفاصيل موت كيش، فقد وجد ميتا في حانوته في الصباح الباكر في اليوم التالى لزيارته الأخيرة لمستر ويس، وكان يقبض بيديه الباردتين اللتين ذهبت منهما الحياة على البلورة. وقالت مسز كيف إنه كان مبتسم الوجه، وإن قطعة القطيفة التي كانت توضع مع المعادن كانت ملقاة على الأرض عند قدميه، وما من شك في

أنه قد مات قبل العثور عليه بخمس ساعات أو ست، فكانت هذه صدمة عنيفة للمستر ويس، وأخذ يلوم نفسه لأنه أهمل ما كان يبدو على الرجل العجوز من أعراض واضحة تدل على ضعف الصحة.

غير أن أكبر اهتمامه كان موجها إلى البلورة. وطرق هذا الموضوع بلباقة لأنه كان يعرف شذوذ المسز كيف، ولكنه ذهل حين قالت بأنها بيعت.

فقد كان أول ما اتجه إليه تفكير المسز كيف بعد أن رفعت جثة زوجها إلى الدور العلوي أن تكتب إلى القسيس المجنون الذي عرض خمسة جنيهات ثمنا للبلورة تخبره بالعثور عليها. وأخذت هي وابنتها تبحثان بكل ما في وسعهما من جهد لمعرفة عنوانه، ولكنهما أيقنتا آخر الأمر بأن هذا العنوان قد ضاع. ولما لم تكن لديهما الموارد المالية الكافية لتشييع جنازة كيف ودفنه بطريقة تتفق وما تتطلبه كرامة رجل مسن يسكن في سفن ديلز، فقد التجآ إلى صديق من التجار في شارع جريت بورتلاند، وكان قد تفضل بقبول جزء ما في المخزن من بضاعة بالثمن الذي قدر له. وكان هذا التقدير من عمله هو وكانت البلورة ضمن محتويات إحدى الكميات التي أخذها. وبعد أن واساها المستر ويس، أسرع في الحال إلى شارع جريت بورتلاند، ولكنه عرف أن البيضة البلورية قد بيعت إلى رجل طويل القامة أسمر اللون يرتدي ملابس رمادية. وهنا تنتهي فجأة الحقائق المادية في هذه القصة الغريبة، والتي توحي لي أنا على الأقل بالشيء الكثير. فلم يعرف تاجر شارع جريت بورتلاند من هو ذلك التاجر الطويل القاتم اللون، ولم يلاحظه بالعناية الكافية التي تمكنه من أن يصفه وصفا دقيقا، بل إنه لم

يعرف أي طريق سلكه بعد أن غادر حانوته. وبقي المستر ويس فترة في الحانوت، يمطر التاجر بأسئلة لا فائدة منها كاد ينفد منها صبره، حتى إذا أيقن فجأة آخر الأمر أن كل شيء قد خرج من بين يديه اختفى كما تختفي أحلام الليل. وما كان أشد دهشته دين عاد فجأة إلى حجرته ووجد أن المذكرات ما زالت في مكان ظاهر على المنضدة، وكان استياؤه وحنينه عظيمين بطبيعة الحال.

وزار حانوت شارع بورتلاند المنظم مرة ثانية دون جدوى، وكتب إعلانا في المجلات التي يحتمل أن يتداولها جامعو التحف، وكتب أيضا إلى صحيفتي الديلى كرنكل والطبيعة، ولكن هاتين الصحيفتين الدوريتين ظنتا أنها دعاية، وطلبتا إليه أن يتدبر تصرفاته قبل أن يطبعا الإعلان، ونصحتاه بأن قصة غريبة كهذه لا يوجد مع الأسف أدلة تؤيدها، وأنها قد تودي بسمعته من حيث هو باحث علمي. ثم كانت لديه أعمال هامة تدعوه إلى الانصراف إليها، ولهذا صرف النظر مرغما عن البحث عن البيضة البلورية بعد شهر من ذلك الوقت أو نحوه إلا من كلة كان يذكّر بها بعض التجار من حين إلى حين. ولم يعرف عنها شيء منذ ذلك الوقت على أنه قد أخبرني أنه تنتابه أحيانا نوبات من حماسته للبلورة، يترك فيها أعماله العاجلة الهامة ويواصل البحث، وليس لدي ما يمنع من تصديق قوله هذا.

ولست أعلم هل تظل البيضة مفقودة أبد الدهر فلا تعرف مادتها ولا أصلها، فهذه أشياء هي الآن كغيرها من موضوعات الحدس والتخمين. ولو كان المشتري الحالي من هواة التحف لتوقعنا أن تصل إلى مسامعه بحوث المستر ويس عن طريق تجارها. وقد أمكنه أن يعرف شخصية قسيس

المستر كيف والرجل الشرقي، فعرف أنهما ليسا إلا القس چيمس باركر والأمير الشاب بسوكوني من أمراء جاوة، وأنا مدين لما بعض ما عرفته من تفاصيل. ولم يكن للأمير من قصد في اقتناء البيضة إلا حب الاستطلاع وإنفاق المال جزافا، فقد كان يحرص على شراء البيضة البلورية لأن كيف كان يحجم إحجاما غريبا عن بيعها، وقد يكون من اشتراها بعدئذ رجلا رآها عرضا وليس من هواة جمع التحف، ومن يدري فقد تكون البيضة البلورية في هذه اللحظة لا تبتعد عني أكثر من ميل واحد تزين بها غرفة جلوس، وقد تكون ثقلا يوضع فوق الأوراق فلا يعرف شيء من خصائصها الغريبة. والحق أن تفكيرى في أن هذه الخواص قد تعرف يوما ما، ماهو إلا أحد الأسباب التي حملتني على أن أضع هذه القصة في صورة تتيح لها الفرصة في أن يقرأها قارئ القصص العادي.

أما رأيي في الموضوع فيكاد يتفق مع آراء المستر ويس، فإن أعتقد أن بين البيضة البلورية التي على سارية المريخ وبيضة المستر كيف صلة تعاطفية طبيعية، وإن كانت هذه الصلة لا يعرف كنهها – في الوقت الحاضر– ويعتقد كلانا أن البلورة الأرضية لابد أن تكون قد أرسلت من ذلك الكوكب من زمن قد يكون بعيدا، حتى يطلع المريخيون على شئوننا. ومن المحتمل أن سائر البلورات التي على ساريات المريخ والمماثلة لهذه البلورة لها نظائرها على كرتنا، وليس ثمة نظرية من نظريات الحدس والتخمين تكفي لمعرفة الحقائق.

جزيرة إيفيورنيس

هـ. جـ. ولز

انحنى الرجل ذو الوجه النديب[1] على المنضدة ونظر إلى الحزمة التي كانت معي. وقال متسائلا عن نوع أزهارها: «أهي من النبات السحلبي»؟

فأجبته: «إن فيها قليلاً منه».

ثم سأل: «هل هي سبريبنديم؟»

فأجبته: «إن أكثرها منه».

ثم سألني: «هل من جديد؟ لم أكن أعتقد ذلك، فقد تنقلت في هذه الجزائر من خمس وعشرين إلى سبع وعشرين سنة وإذا وجدت أنت جديداً هنا– كان جديداً كل الجدة– ذلك أني لم ترك فيها شيئاً كثيراً».

فأجبته بقولي: «لكني لست جامعاً للجديد من الأشياء».

ولكنه استمر في حديثه قائلا: «لقد كنت صغيراً في ذلك الوقت وما أسرع ما طوفت حول العالم»، ثم نظر إليّ نظرة الماكر وقال: «لقد قضيت في جزائر الهند الشرقية سنتين، وفي البرازيل سبعا، ثم ذهبت إلى

(1) من الندبة وهي أثر الجرح.

مدغشقر».

فأجبته وأنا أتوقع أنه سيقص عليّ قصته «أعرف أسماء بعض الرحالة، ولحساب من كنت تعمل؟».

«لحساب دوسن، ولعلك سمعت باسم بتشر».

«يتشر– بتشر؟».

لقد كان الاسم حاضراً، ولكنه غامض، في ذاكرتي؛ ثم استعدت ذكرى بتشرضد دوسن. وقلت «هل أنت الذي قاضيتهم من أجل مرتب أربع سنوات حين ألقي بك في جزيرة صحراوية؟».

فقال ذو الندبة: «هذا صحيح، لقد كانت قضية مضحكة أليس كذلك كنت أجمع ثروة قليلة في تلك الجزيرة ولا أعمل من أجلها عملا. ودوسن عاجز عن إخباري بشيء، وكثيراً ما كنت أسلي نفسي بالتفكير في ذلك أثناء إقامتي هناك، وقد سجلت هذه الحسابات بأرقام مزخرفة في كافة أنحاء الجزيرة.

فقلت: «وكيف حدث هذا، فإني لا أذكر القضية بالضبط»؟

«حسنا! لعلك سمعت عن إبييورنيس؟».

«طبعا فقد أخبرني أندروز عن فصائل جديدة كان يفصح عنها من شهر أو شهرين فقط، فقد عثروا على عظم فخذ، وخيّل إليه أن طوله حوالي ياردة، وما من شك في أن صاحبه كان مهولا».

فقال الرجل النديب: «إنني أصدقك. فقد كان مهولا حقا، عجيب

الخلقة، ولم يكن رخ السندباد سوى أسطورة حيكت حول هذا المخلوق، ولكن متى وجدوا هذه العظام؟».

«من ثلاث سنوات أو أربع، ولماذا تسأل هذا السؤال؟».

«لماذا! لأنني أنا الذي وجدتها.. يا إلهي، لقد كان هذا من عشرين سنة تقريبا، ولو لم يكن دوسن سخيفاً ولو لم يفعل ما فعل بذلك المرتب لأمكنه أن يحتكرها هو وجماعة قليلة ويربحوا منها كثيراً، فأنا لم أستطع أن أمنع القارب الجهنمي أن يسير مع التيار».

وبعد أن توقف قليلاً قال: «لعله نفس المكان، إنه أشبه بمستنقع على بعد حوالي تسعين شمال أنتانا ناريفو، فهل تعرفه؟ إذا شئت أن تذهب فلابد أن تبحر محاذيا الشاطيء في قارب، ولعلك لا تذكر ذلك؟».

«لا أدري، وأظن أن أندروز قد ذكر شيئا عن مستنقع».

«لابد أن يكون هذا المكان، إنه على الشاطيء الشرقي، ولابد أن يكون في المياة شيء يحفظ الأشياء من العطب، وله رائحة الزيت، وقد ذكرني بترينيداد. هل وجدوا أي بيض آخر؟ إن طول بعض البيض الذي وجدته كان قدما ونصف، والمستنقع كما تعرف يلتف حول المكان ويفصل هذا الجزء، وأكثر مالح أيضا... ألا ما أشق الحياة في تلك الفترة التي قضيتها هناك! لقد وجدت العظام سدفة! فقد ذهبنا نبحث عن البيض، وكنا ثلاثة اثنين من أهل الباد وأنا في أحد هذه القوارب العجيبة المربوطة بعضها في بعض، ووجدنا العظام في نفس الوقت، وكانت لدينا خيمة ومؤونة تكفينا أربعة أيام، وعسكرنا في أحد الأماكن الأكثر من غيرها

استقراراً، وإني لأستعيد تلك الرائحة الكريهة إلى ذهني الآن حين أفكر في ذلك مرة ثانية. إه لعمل مضحك، فإنك تذهب لتسبر غور المياة في الطين بعصى حديدية، ويتحطم البيض عادة. ولست أدري كم من الوقت انقضى مذ عاش هذا الطير. وتروي البعثات الدينية أن للوطنيين أساطير تناقلوها عنه حين كان حياً، ولكني أنا نفسي لم أسمع هذه القصص[٢]. غير أن من المحقق أن هذا البيض الذي حصلنا عليه كان طازجاً حديثاً، نعم كان طازجا! فقد سقطت بيضة من أحد أتباعي حين كان ينقلها إلى القارب فتكسرت، وأنبته على ذلك حتى ندم على فعلته، ولكن ما كان أحلاها؟ كأنها كانت جديدة، بل إنها لم يكن لها أية رائحة على ما أظن، وكأن أمها لم تمت من أربعمائة عام أو أكثر. ويقال إن حشرة ذات المائة قدم لدغته. على أنني قد خرجت عن موضوع القصة. لقد قضينا النهار كله نحفر في الطين لنخرج هذا البيض غير مكسور، حتى غطتنا كلنا هذه المادة السوداء الكريهة، ومن الطبيعي أن أكون عابساً، ولقد كانت بطبيعة الحال هي البيضات الوحيدة التي أمكن العثور عليها بدون أن تصاب حتى بشرخ، وقد ذهبت فيما بعد لمشاهدة البيضات المحفوظة في متحف التاريخ الطبيعي في لندن، ووجدت أنها كلها متشققة وملتصقة أجزاؤها كأنها أشغال الفسيفساء تنقصها بعض الأجزاء. أما البيض الذي حصلت عليه فكان سليما، وكنت أريد أن أفرغ ما بداخلها بعد عودتي. وقد تضايقت بطبيعة الحال من الأحمق الذي أسقط بيضة بعد عمل ثلاث ساعات، من

(٢) لم يلاحظ أن أحد الأوربيين رأي إيبروني حيا مع جواز استثناء ملك أندروز. وهذا أيضا مشكوك به. وقد زار هذا جزيرة مدغشقر في عام ١٧٤٥. هـ. ج. ولز.

أجل إحدى الحشرات. وأخرج الرجل ذو الندبة قصبة تدخينه ووضعت كيس التبغ أمامه فملأه من غير وعي.

ثم أخذ يقول: «وهذا هو الجزء العجيب من القصة، فقد كان لدي ثلاث غيرها، وكانت طازجة على أحسن حال، ثم وضعناها في القارب وذهبت إلى الطبيعة لأعد القهوة وتركت الوطنيين الكافرين على الشاطيء، وكان أحدهما يتألم من لدغة الحشرة والآخر يعاونه، ولم يخطر ببالي أن سينتهزا فرصة الوضع الشاذ الذي كنت فيه ليتشاجرا، ولكني أعتقد أن أحدهما تأثر بسم الحشرة وما سببه الضرب من ألم، وحمل الآخر على الشجار.

وأذكر أنني كت جالساً أدخن وأغلي الماء على الموقد الكحولي الذي اعتدت أخذه معي في هذه الرحلات، وكنت في الوقت ذاته أعجب بمنظر المستنقع وقت غروب الشمس، فقد كان منظره جميلا يختلط فيه اللون الأحمر القاني بالخطوط السوداء. وكانت الألوان الرمادية ترتفع وراء الأرض حتى التلال، وكانت السماء من خلفها حمراء كفوهة الأتون، وكان الوطنيان الكافران من خلفي على مسافة خمسين ياردة لا يعبآن بمنظر الأشياء الهاديء المسالم، بل يتآمران على الفرار وتركي وحيدا ليس لدي سوى غذاء يكفي ثلاثة أيام وخيمة من القماش، وليس معي ما أشربه سوى برميل صغير من المياة. وسمعت صوتاً جعلني ألتفت خلفي فوجدتهما في هذا القارب– إذا أمكن أن نسميه قارباً– وعلى بعد عشرين ياردة من الأرض، فاكتشفت المؤامرة الصغيرة في الحال، وكانت بندقت في الخيمة، ولم يكن لدي طلقات ثوية، عدا طلقات لصيد البط، وكانا يعرفان ذك،

ولكن كان معي مسدس صغير في جيبي، فأخرجته وأنا أجري إلى الشاطيء.

ولوحت لهما قائلا: «عودا».

ولكنهما أجابا ببضع كلمات لم أفهم لها معنى، وسخر مني الرجل الذي كسر البيضة، وصوبت المسدس نحو الرجل الآخر لأنه لم يكن مصابا، ولأن المجذاف كان معه، ولكني أخطأت الهدف. وضحكا، ومع ذلك فأنا لم أهزم، وكنت أعرف أن من واجبي أن أحتفظ بهدوئي، وأطلقت عليه طلقة أخرى جعلته يقفز من مكانه من أزيزها. ولم يضحك هذه المرة، أما في المرة الثالثة فقد أصيب رأسه وسقط ومعه المجذاف، وما كان أعجبها طلقه من مسدس. وأحسب أني كنت على بعد خمسين ياردة منه، وسقط في المياه، ولا أدري هل أصيب فعلا أو أنه فقد وعيه وغرق؟ ثم أخذت أنادي زميله ليعود، ولكنه انكمش في القارب ورفض أن يجيب، ولذلك صوبت مسدسي نحوه، ولكني لم أقترب منه.

وسعدت بحماقة تصرفاتي، فقد كنت على هذا الساحل القاتم القذر، وخلفي مستنقعا ، وكان الجو بارداً بعد غروب الشمس، وليس أمامي إلاّ هذا القارب القاتم الذي يسير في التيار بانتظام نحو البحر. ولست أنكر أنني سبب (دوسن) والمتاحف وغيرها بأفحش الألفاظ، وصرخت منادياً هذا الكافر ليعود، حتى أصبح صوتي صراخاً، ولم يكن أمامي إلاّ أن أسبح خلفه وأتعرض لخطر كلاب البحر، ولذلك فتحت سكيني ووضعته في فمي، ونزعت ملابس وخضت في المياه، ولكني ضللت مكان القارب بمجرد نزولي في المياه، ومع ذلك واصلت السباحة لأقطع عليه الطريق كما

ظننت.

على أنني وصلت إليه في الوقت الذي ظهرت فيه النجوم، ولما أظلمت السماء بدأت أشاهد كثيراً من الأشياء المتوهجة في المياه، وهي الضياء الفسفوري كما تعرف، وكان يسبب لي دواراً أحياناً، وعجزت عن أن أميز النجوم من الضياء الفسفوري، ولم أعرف هل كنت أسبح على رأسي أو على كاحلي، وكان القارب أسود حالك السواد، وكانت موجات المياه الصغيرة تحت قدمي أشبه بسائل من نار. ومن الطبيعي أنني لم أكن أحرص على تسلقه، ولكني كنت أحرص أولاً على أن أعرف ماذا يريد أن يفعله، ويظهر أنه كان راقداً منكمشاً في مقدم القارب، أما مؤخره فقد كان كله خارج الماء، وظل القارب يدور ببطء وهو منحدر في الماء كأنه يرقص، وذهبت إلى مؤخرته وجذبته إلى أسفل آملا أن يستيقظ الرجل، ثم بدأت أتسلقه والسكين في يدي وأنا مستعد للهجوم، ولكنه لم يتحرك مطلقاً، وعلى ذلك جلست في مؤخرة القارب الصغير واندفعت مع التيار فوق البحر الهادىء ذي الضوء الفسفوري والنجوم كلها من فوقي أنتظر ما تجيء به الأقدار.

وبعد وقت طويل ناديته باسمه، ولكنه لم يرد قط، وكنت متعباً جداً، فلم أخاطر بالذهاب لي، ولذلك جلسنا جميعا في القارب، ويخيل إلي أنني أغفيت مرة أو مرتين، ولما طلع الفجر وجدته ميتاً ومنتفخاً، وكان لونه أرجوانياً، وكانت بيضاتي الثلاث والعظام في وسط القارب، وبرميل المياه والقهوة والبسكوت ملفوفة بجريدة أرجوس التي تصدر في مدينة الكلب عند قدميه، وعلبة الكحول تحته، ولم يكن في القارب مجذاف أو شيء

أستطيع أن أستخدمه مجذافا عدا علبة الكحول المصنوعة من القصدير، ولذلك اعتزمت أن أترك القارب يسير مع التيار حتى يلتقطني إنسان، وأجريت تحقيقاً رسمياً عن أسباب وفاته شهدت بعده بأن موته ناشيء عن عضة أفعى أو عقرب أو حشرة من ذات المائة الأرجل غير معروفة، ثم ألقيته في البحر.

وبعد أن شربت جرعة من الماء وأكلت بضع قطع من البسكوت نظرت حولي، وأظن أن أي إنسان مثلي به من الضعف مثل ما بي، لا يرى إلى مسافة بعيدة. ومهما يكن من هذا الأمر فقد كانت مدغشقر خارج دائرة نظري هي وكل أثر للأرض. وشاهدت مركباً شرعياً متجهاً إلى الجنوب الغرب، ولكنه لم يقترب مني، ولم تلبث الشمس أن ارتفعت في السماء وأخذت حرارتها تضايقني، حتى كادت أن تجعل رأسي يغلي، وحاولت أن أضع رأسي في ماء البحر، ولكني أبصرت جريدة أرجوس التي تصدر في مدينة الكاب في قاع القارب ووضعتها فوقي.

ثم قال الرجل النديب: وما أعجب هذه الجرائد، إنني لم أقرأ واحدة منها قراءة دقيقة من قبل، ولكنك تعجب أشد العجب ما تستطيع أن تفعله بها إذا كنت وحدك مثلي، وأظن أنني قرأت هذه الصحيفة القديمة عشرين مرة. وازدادت رائحة الغاز من شدة الحرارة وعلا في فقاقيع كبيرة.

وقال الرجل النديب: واندفعت مع التيار عشرة أيام. طبعا.. تراها شيئاً صغيراً وأنا أقص قصتها، أليس كذلك؟ ولم يكن يوم منها يفترق عن اليوم الذي قبله ولم أرقب ما حولي إلا في الصباح والمساء لأن وهج

الشمس كان كأنه قطعة من الجحيم. ولم أر شراعاً بعد الثلاثة الأيام الأولى. ولم أعر ما شاهدته من السفن في أثنائها التفاتا، ومرت بي سفينة حوالي الليلة السادسة على مسافة لا تكاد تبعد نصف ميل عني، وكانت كل أنوارها ساطعة، فكانت أشبه بذبابة من نار، وكانت النغمات الموسيقية تسمع منها، فوقفت وصحت وصرخت مناديا. وفي اليوم الثاني بدأت طعامي بإحدى بيضات (الأبيورنيس) فكسرت جزءاً من قشرتها عند طرفها بالتدريج، وسررت حين وجدت أنها صالحة للأكل بالرغم من رائحتها الشديدة ونكهتها القوية، فهي لم تكن فاسدة، وكان طعمها أشبه بطعم بيض البط، وكان بها بقعة مستديرة قطرها حوالي ست بوصات على أحد جوانب الصفار، وخطوط من الدم، وعلامة بيضاء أشبه بالسلم ظننتها شيئاً غريباً، ولكن لم أفهم لها معنى وقتئذ، ولم أعر ذلك عناية خاصة. وكفتني البيضة ثلاثة أيام مع البسكوت وجرعة الماء، ومضغت بعض حبوب البن وهو مادة مقوية. أما البيضة الثانية فقد كسرتها حوالي اليوم الثامن، وسببت لي شيئاً من الخوف.

وتوقف الرجل ذو الندبة في حديثه ثم قال «نعم» كان يتكون فيها الجنين.

ولا شك أن من الصعب عليك أن تصدق هذا، لقد وجدته أنا نفسي صعباً مع أن الحقيقة كانت أمامي، لقد كانت البيضة مدفونة في الطين الأسود البارد ثلاثمائة سنة أو نحوها، وكان هناك– ماذا؟ جنين برأسه الكبير، وظهره المقوس، وقلبه يدق تحت حلقه، والصفار متجعد، والأعضاء الكبيرة ممتدة داخل القشرة وفي كل أجزاء الصفار، فهنا قد

أفرخت بيضة أكبر الطيور المنقرضة في قارب صغير وسط المحيط الهندي. ألا ليت دوسن الشيخ كان يعرف ذلك! لقد كان هذا عملاً يستحق مرتب أربع سنوات، فما هو رأيك؟

على أنني كنت مضطراً لأن آكل هذا الشيء، كل جزء منه قبل أن أشاهد الجزيرة، وكان طعم بعضه فظيعاً، وتركت البيضة الثالثة وشأنها، ورفعتها في الضوء، ولكن قشرتها كانت سميكة فلم أعرف ماذا كان يحدث في داخلها؟ وبالرغم من أنه خيّل إليّ أنني أسمع الدم يجري فيها، فقد حسبت أن ذلك قد يكون أصواتاً في أذني كالأصوات التي تصغى إليها في قواقع البحر.

وأخيراً رأيت الجزيرة، كأنها قد خرجت من مشرق الشمس فجأة بالقرب مني، وجرفني التيار في تجاهها مباشرة حتى أصبحت على مسيرة نصف ميل من شاطئها، ثم تغير اتجاه التيار واضطررت لأن أجدّف بكل عنف بيديّ وقطع من قشر الإبيبرونيس حتى أصل إليها. ومع ذلك وصلت، وكانت جزيرة عادية محيطها حوالي أربعة أميال، بها أِجار قليلة، وينبوع مياه في إحدى جهاتها، ومستنقع مملوء بنوع من السمك. وأخذت البيضة إلى الشاطيء ووضعتها في مكان ملائم في الشمس بعيد عن الحد الذي تصل إليه المياه لأعطيها كل ما أستطيع من فرص للإفراخ، وربطت القارب رباطاً قوياً، وتجوّلت في الجزيرة لأنظر ما فيها، ومن عجب أنه لم يكن فيها شيء ممتع، وقد بدا لي أن كل اهتمامي بها قد زال بعد أن وجدت ينبوع المياه، مع أنني حين كنت صغيراً، كنت أظن أن ليس هناك ما هو أجمل أو أكثر مخاطرة من حياة ربنسن كروزو، ولكن هذا المكان كان مملا ككتاب المواهظ، فتجولت في الجزيرة باحثاً عن أشياء تصلح للطعام.

وكنت دائم التفكير ولكني تضايقت جداً قبل أن ينقضي اليوم الأول، ومما يدل على حظي أن الجو تغيّر، فهمت عاصفة رعدية من الشمال، واكتسحت الجزيرة، وانهمر المطر كالسيل، وهبّت علينا رياح شديدة بالليل، ولم يكن من الصعوبة في شيء أن ينقلب القارب.

ونمت تحت القارب، ومن حسن الحظ أن البيضة كانت في الرمل مرتفعة عن الشاطيء. وكان أول شيء أذكره صوتاً أشبه بصوت مئات الحصى تقذف القارب دفعة واحدة، واندفاع الماه فوق جسمي. وكنت أحلم ي (اانتنا ناريفو) فصحت لأسأل (انتوشي) عن جلية الأمر. ومددت يدي نحو الكرسي الذي كان الكبريت يوضع عليه عادى، ثم تذكرت مكاني، فرأيت الأمواج الفسفورية مندفعة كأنها تريد أن تبتلعني. وكان سائر ما في الجزيرة أسود كالقار، وكات السماء قاتمة والمطر منهمراً، ثم اكتسحتني إحدى الموجات الملتوية كالأفعى ففرت من أمامها، ثم تذكرت القارب وجريت لأبحث عنه بعد أن انحسرت المياه، ولكنه كان قد ضاع. وفكرت في أمر البيضة واتخذت طريق إليها، فوجدتها سليمة بعيدة عن أقوى الأمواج، فجلست بجوارها، وطوقتها بذراعي معتزاً بصحبتها. فقد كانت الليل هو جاء، وكان صفير الريح شديداً، وكانت السحب كأنها ترتكز على رؤوسنا، ونزلت الأمطار كأن السماء نفسها كانت تتساقط، والناس يجرفون الماء بالدلاء.

ثم سكنت العاصفة قبل الصباح، ولم تبق قطعة من السحاب في السماء حين طلع الفجر، ووجدت قطعاً من الخشب متناثرة على الشاطيء، وكانت هي هيكل القارب المحطم إذا جاز أن يسمى هذا

هيكلاً. وأتاح لي وجودها فرصة للعمل لأنني استفدت من شجرتين متقاربتين، واستعنت بحطام القارب، لأقيم حاجزاً لحمايتي من العواصف، وأفرخت البيضة في ذلك اليوم.

لقد أفرخت يا سيدي وأنا أضع رأسي عليها وأنا نائم، لقد سمعت قرقعة، وشعرت بصرير، وجلست، ورأيت رأساً عجيب الشكل، بني اللون ينظر إليّ، فقلت «مرحباً بك»، ثم خرج من البيضة بقليل من الصعوبة.

لقد كان مخلوقاً صغيراً محبوباً، وكان في حجم الدجاجة الصغيرة في مبدا الأمر، يشبه معظم الطيور الأخرى، إلا أنه أكبر منها. وكان زغبه أولاً بني اللون قذراً، ولم يكن له ريش، بل كان ماله منه أشبه بشعر ناعم جميل، ولست أستطيع أن أعبر عن سروري بمشاهدته، ويمكني أن أقول إن ربنسن كروزو لم يقل ما يكفي عن وحدته. أما هنا فقد كان معي خلائق أستمتع بصحبتها. ونظر إليّ وغمز بعينه من الأمام إلى الوراء كما تفعل الدجاجة، وأخذ ينقر فيما حوله على الفور، كأن خروجه من البيضة متأخراً عن موعده ثلثمائة سنة ولم يكن له أثر فيه. وصاح مسروراً وناديته «إنني مسرور برؤيتك يا جمعه» لأنني كنت مصماً أن أدعوه «جمعه» إذا خرج من البيضة. وكان ذلك من يوم أن وجدت أن البيضة التي كانت في القارب قد اكتمل أجلها. وكان أمر طعامه يحيرني بعض الحيرة، ولذلك أعطيته قطعاً من السمك في الحال، أخذها وفتح منقاره طلبا للمزيد، فسرني ذلك منه. ولو أنه أخذ يدقق فيما يأكله في الظرف الذي كنت فيه لاضطرني ذلك إلى أن آكله هو آخر الأمر.

وإنك لتدهش لما سببه الإيبيورنيس لي من متعة، فقد أخذ يتبعني من بداية الأمر، وكان يقف إلى جانب ويرقبني في الوقت الذي كنت أصطاد فيه في المستنقع. وكنا نتقاسم كل شيء أصطاده، وكان ذا إحساس أيضاً، فقد وجد على الشاطيء بعض الأشياء القذرة الخضراء الشبيهة بالخيار فجر هذه الخضر، ولكنه تضايق منها ولم يشأ بعدئذ أن ينظلا إلى واحدة منها بعينيه.

وأخذ ينمو ولما كنت رجلا لا يغشى المجتمعات كثيراً فإن أساليبه الهادئة الودية كانت تلائمن يكل الملاءمة، وظللت في تلك الجزيرة سنتين كنا فيها كأسعد ما يكون الرفاق.

ولم يكن هناك ما يشغل بالي من جهة العمل، لأنني كنت على يقين أن مرتبي يتجمع عند دوسن. وكنا نشاهد شراعاً على مسافة بعيدة عنا من وقت إلى آخر. ولكن سفينة ما لم تقترب منا. وكنت أقضي الوقت أسلي نفسي بتزيين الجزيرة برسوم من قواقع من مختلف الأنواع. وكتبت عبارة (جزيرة ايبيورنيس) في كل مكان من الجزيرة تقريباً بحروف كبيرة كالتي تراها مكتوبة بالأحجار الملونة في محطات السكك الحديدية في الجهات الريفية القديمة. وكانت هناك أيضاً عمليات حسابية مختلفة الأنواع، واعتدت أن أرقد وأرقب هذا الطائر في مشيه ونموه، وفكرت في اتخاذه وسيلة لجمع المال بعرضه على الناس إذا قدّر لي أن أغادر يوماً ما هذا المكان. ولم يلبث أن أخذ شكله يزداد جمالا، وينمو له عرف جمل وريش أزرق وأخضر. ثم أخذت أفكر هل كان لدوسن الحق في أخذه مني أو لم يكن له. وككنا نرقد في الدفء، في الجو العاصف وفي فصل الأمطار، في مخبأ صنعتُه

من بقايا القارب القديم، واعتدت أن أروي له قصصاً كاذبة عن أصدقائي في بلدي، وكنا نتجول في الجزيرة بعد العاصفة لنرى هل قذفت الألواح شيئاً. ولو أنني كان معي بعض التبغ لشعرت كأني في جنة النعيم.

ثم ساءت الأحوال في الجنة الصغيرة حوالي نهاية السنة الثانية، فقد أصبح ارتفاع جمعة حوالي أربع عشرة قدماً عند منقاره. وكان له رأس كبير عريض كطرف البلطة، وعينان كبيرتان ليستا متباعدتين على جانبي رأسه كسائر عيون الدجاج بنيتان ذواتا حافات صفراء كأنهما عينا إنسان. وكان ريشه جميلا، ولم يكن من طراز الريش المقبض بعض الشيء كريش النعام. ثم أخذ يزهو بعرفه، وينفخه، ويظهر شواهد دالة على سوء الطبع. وأخيراً حان الوقت الذي قل فيه ما صدته من السمك، وبدأ يتسكع حولي بشكل غريب يدل على التأمل والتفكير. وظننت أولاً أنه قد أكل شيئاً من ثمار البحر أو غيره، ولكن الحقيقة أنه كان مستاء، وكنت أنا أيضاً جائعاً، ولما وجدت أخيراً سمكة أردت أستأثر بها لنفسي، وكان كلانا مستاء في ذلك الصباح. وأخذ هو ينقرها ثم اختطفها مني، ولكني ضربته على رأسه ليتركها، وحينئذ هاجمني! يا إلهي...

وأصابني بما تشاهده في وجهي– وأشار الرجل إلى الندبة– ثم ركلني كأنه حصان عربة، ثم قمت على قدمي، ولما تبين لي أنه لم يفرغ بعد من ضربي جريت أمامه، وذراعاي مطويتان فوق وجهي، ولكنه أخذ يعدو من خلفي على رجليه الطويليتين أسرع من جري خيل السباق. وظل يركلني بقدميه الشبيهتين بالطارق، وينقر مؤخر رأسي بمنقاره الشبيه بالبلطة، فانحنيت نحو الماء الضحل وغطست فيه إلى عنقي، فوقف عند حافة المياه،

لأنه كان يكره أن تبتل قدماه، وأخذ يصيح صياحاً أشبه بصياح الطاووس، ولكنه أكثر منه خشونة، ثم أخذ يسير على الشاطيء جيئة وذهاباً، ورأسه مرفوع في الهواء. ولست أنكر أني شعرت بصغر شأني حين شاهدت هذه الحفرية تصول وتجول في المكان، وكان الدم ينزف من وجهي ورأسي، وكأن جسمي كله قطعة واحدة من الهلام.

واعتزمت أن أسبح في الماء الضحل وأتركه منفرداً فترة من الوقت حتى تتحسن الأحوال، ثم التجأت إلى أطول نخلة وجلست عندها أفكر في الأمر، ولا أظن أنني شعرت بمثل هذا الألم قبل ذلك اليوم أو بعده. وكان سبب شعوري هذا جحود هذا المخلوق الشرس الذي كنت له أكثر من أخ، فقد أفرخته وربيته– ذلك المخلوق الذي جاء من غير أوانه– وأنا الآدمي وريث العصور، وما إلى ذلك.

وظننت بعد قليل أنه سيبدأ هو نفسه يرى الأمور على هذه الصورة، وأنه سيندم بعض الندم على سلوكه، وظننت أنه سيثوب إلى رشده إذا اصطدم بعض السمكات وعدت إليه عودة غير مقصودة لذاتها، ولكني لن أتعلم إلا بعد مضي بعض الوقت أن الطيور سيئة الطباع لا تعفو عن الإساءة.

ولست أريد أن أحدثك عن الحيل الصغيرة التي حاولت بها استمالة هذا الطائر لأن ذلك ليس في قدرتي ولأنني أخجل كلما ذكرت ما أصابني من إهانات وضربات من ذلك الكائن الجهنمي العجيب. ثم حاولت العنف معه، فقذفته بقطع من الصخور المرجانية من مسافة بعيدة لا يصل

إليّ فيها أذاه، ولكنه ابتلعها. وقذفته بسكيني المفتوح وكدت أفقده وإن كان أكبر من أن يستطيع ابتلاعه، ولكنه أخطأ المرمى. وحاولت أن أميته جوعاً فأضربت عن صيد السمك، ولكنه اعتمد في غذائه على الديدان يبحث عنها على الشاطيء بمنقاره في وقت انحسار الماء. واتخذها طعاماً له، وقضيت نصف الوقت في الماء الضحل غارقاً في إلى عنقي، وقضيت ما بقى منه فوق النخيل، ولم تكن إحداها عالية علواً كافياً، فأدركني عليها. وأخذ ينقرني في لحم ساقي حتى لم أعد أطيق على ذلك صبراً.

ولست أدري هل حاولت أن تنام على نخلة؟ لقد سبب لي ذلك النوم أحلاماً مزعجة. ثم فكَّر فيما يسببه لي ذلك من خجل أيضاً! فها هو ذلك المخلوق العجيب يتجول في جزيرتي بخيلاء كالأمير الشرس، ولا يسمح لي بأن أطأها بقدمي. فأخذت أبكي من التعب والغضب، وقلت له بصراحة إنني لا أقبل أن يطردني من جزيرة صحراوية مخلوق لعين كان المفروض أنه انقرض من أجيال عدة، وأخبرته أن يبحث عن بحَّار من عصره ولكنه لم يتحول عن نقري بمنقاره، ذلك الطائر البشع الذي لا يتكون إلا من منقاره ورجلين.

لست أريد أن أقول كم من الزمن استمرت هذه الحال، ولو أنني عرفت كيف أقتله لقتلته. على أنني عثرت على طريقة لقضاء عليه آخر الأمر، وهي طريقة معروفة في أمريكا الجنوبية، فقد وصلت كل خيوط الصد بأعشاب البحر وغيرها، وصنعت منها حبلا سميكاً متيناً لعل طوله كان اثنتي عشرة ياردة أو أكثر، وربطت في كرفيه قطعتين من صخور المرجان، وقضيت في ذلك بعض الوقت، فقد كنت أضطر من حين إلى حين إلى الذهاب إلى الماء الضحل أو

الصعود فوق شجرة إذا بدا لي أن أفعل ذلك. وأخذت أدير هذا الحبل بسرعة فوق رأسي، ثم قذفته به، فأخطأه في المرة الأولى، ثم أصاب ساقيه في المرة الثانية والتف حولهما عدة مرات فوقع على الأرض. وكنت قد وقفت على الجبل وأنا غارق إلى رسخي في الماء الضحل، وما كاد يقع حتى خرجت من الماء وانقضضت على رقبته بسكيني وأجهزت عليه، ولست أود أن أفكر في ذلك حتى في هذا الوقت، فقد شعرت وأنا أفعل فعلتي كأني سفاح بالرغم من شدة غضبي عليه. ولا يمكن تصور ما أصابني من ألم حينما وقفت فوقه وشاهدته والدم ينزف منه على الرمال البيضاء. ورأيته وعنقه الجميل وساقاه العظيمتان تتلوى كلها من شدة الألم.

وشعرت بالوحدة التي سببتها لي هذه المأساة. آه يا إلهي! ليس في وسع إنسان أن يتصور كيف عزّ عليّ فقد هذا الطائر. لقد جلست بجوار جثته، وحزنت عليه، وارتجفت حين نظرت حولي في هذه الجزيرة القفراء، وفكرت كيف كان طائراً صغيراً جميلاً حينما أفرخ، وفكرت في آلاف من حركاته الجميلة وألاعيبه التي رأيتها منه قبل أن تسوء طباعه. وأخيراً فكرت في أنني لو أكتفيت بجرحه فقط، لأمكنني ترويضه وتهذيب طباعه، ولو أمكنني وقتئذ أن أحفر الصخور المرجانية بطريقة ما، لدفنته فيها، وشعرت كأنه إنسان بحق. ولما كان الأمر كذلك فإنني لم أفكر في أكل لحمه، ولذلك وضعته في الماء الضحل، فأكلت الأسماك الصغيرة لحمه كله وحتى ريشه لم أنقذه منها.

وفي ذات يوم كان رجل يطوف في هذه البحار في يخته فمر بالجزيرة، وأراد أن يعرف هل لا تزال باقية؟ وكان حضوره في أنسب وقت لم يتقدم

عنه لحظة لأنني كنت قد تضايقت من وحشتها، كل ما كنت أتردد فيه هو هل أخرج إلى البحر فينتهي الأمر بهذه الطريقة أو أن آكل الكلأ الأخضر؟

وبعت العظام إلى رجل يدعى ونسلو، وهو تاجر بالقرب من المتحف البريطاني، يقول إنه باعها إلى هافرز الشيخ، ويظهر أن هافرز هذا لم يفهم أنها كانت أكبر مما يجب أن تكون، ولم تستلفت الأنظار إلا بعد موته وسموها «إبييورنيس» فما هي؟

فقلت «إبييورنيس العظيمة» هذا شيء مضحك، لأن هذا الشيء نفسه قد ذكره لي أحد أصدقائي، فإنهم لما وجدوا إبييورنيس له فخذ طولها ياردة ظنوا أنهم وصلوا إلى أقصى حد في الطول وسموا هذا الحيوان إبييورنيس الأكبر، ثم عثر أحدهم على عظم فخذ آخر طوله أربع أقدام أو ست أو أكثر وسموه (إبييورنيس الجبار)، ثم وجد عظمك بعد موت هافرز الشيخ في مجموعته فكان هذا هو الحيوان المهول.

وقال الرجل النديب: كان وينلسو يخبرني عن هذا كله، وإذا وجدوا أي إبييورنيس أخر، فإنه يقدر أنّ أستاذاً ما سينفجر أحد أوعيته الدموية، ولكن من أعجب الأشياء أن يحدث هذا لإنسان– ألم يكن كذلك؟

الفهرس

دب الكولونيل بيتش.. دافد جارنت ٥
سرير عجيب رهيب.. وليم ويلكي كلنز ١٣
النخلة ذات الجرس.. ألن فوجان إلستن ٣٧
مخلب القرد.. د. و.جيكبز ٦٣
تغيير المعاملة.. و. و. جيكبز ٨١
البيضة البلورية.. هـ. ج. ولز ٩٣
جزيرة ايفيورنيس.. هـ. جـ. ولز ١١٩